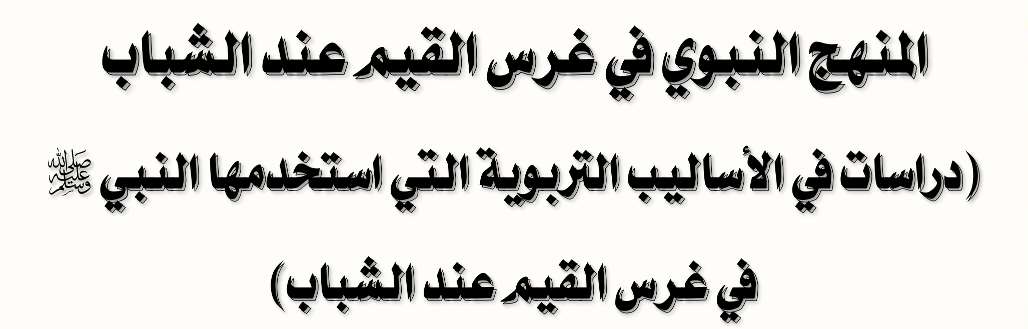


إعداد الدكتور

ناصر أبو عامر عبد السلام عبد الفتاح

الأستاذ المشارك في جامعتي الأزهر وطيبة بالمدينة المنورة


بسم الله الرحمن الرحيم

المنهج النبوي في غرس القيم عند الشباب

دراسات في الأساليب التربوية التي استخدمها النبي صلى الله عليه وسلم في غرس القيم عند الشباب

ناصر أبو عامر عبد السلام عبد الفتاح

قسم الحديث وعلومه، كلية أصول الدين بالمنوفية، جامعة الأزهر، مصر.

البريد الإلكتروني: dr.naser1974@gmail.com

الملخـــص :

يهدف هذا البحث إلى: بيان منهج السنة في توجيه الشباب بأساليب متنوعة، وانتهى البحث إلى عدّة نتائج أهمها: أن النبي ﷺ ربَّى الصحابة ومنهم الشباب تربية فريدة في كل مجال من مجالات الحياة، واستخدم في ذلك أساليب عدّة، منبعها القرآن والسُنَّة، ثم خبر من غبر وتجارب الحياة، وقد راعى النبيﷺ التنوُّع في هذه الأساليب؛ حتى لا يتسرَّب الملل إلى نفوس صحابته رضوان الله عليهم، سيما الشباب، كما أن التنوُّع أدعى إلى ترسيخ القيمة، وهو أدعى -كذلك- إلى مراعاة شخصية المسلم نفسها، وهو ما يعرف بالفروق الفردية، فكل مسلم تختلف شخصيته عن أخيه المسلم؛ ولذلك فقد يتمُّ غرس قيمة إسلامية في نفس مسلم من خلال الآيات والسنن، بينما تُغرس القيمة نفسها في مسلم آخر من خلال استخدام أسلوب القصة أو الحوار.. وهكذا، بالإضافة إلى أن كلَّ أسلوب يغرس قيمة معينة أو معنى جديدًا في نفس المسلم، لا يتحقق من خلال غيره من الأساليب.

وسأتناول في هذا البحث مجموعة من الأساليب النبوية التي استُخدمت في صناعة جيل فريد، وهي قادرة كذلك إن شاء الله على صناعة جيل رائد، به تحيا الأمة دائمًا عزيزة مُهابة؛ وذلك من خلال المباحث التالية:

المبحث الأول: أسلوب تربية الشباب بالآيات والسنن الإلهية.

المبحث الثاني: أسلوب تربية الشباب بالقدوة

المبحث الثالث: أسلوب تربية الشباب بالحوار

المبحث الرابع: أسلوب تربية الشباب بالعبادة

المبحث الخامس: أسلوب تربية الشباب بالقصة

المبحث السادس: أسلوب تربية الشباب بالترغيب والترهيب

المبحث السابع: أسلوب تربية الشباب بالعادة

المبحث الثامن: أسلوب تربية الشباب بضرب الأمثال

المبحث التاسع: أسلوب تربية الشباب بالحدث

المبحث العاشر: أسلوب تربية الشباب بالعقوبة

الكلمات المفتاحية: السنة، الشباب، المنهج، الأسلوب، التربية، القدوة، الترغيب والترهيب، الأمثال.

The Prophetic Approach of Inculcating Values in Youth
(A Study of the Pedagogical Approaches utilized by the Prophet to inculcate Values in Youth)

By: Nasser Abu Amer Abdel- Sallam Abdel- Fattah
Department of Hadith and its Sciences
Faculty of Osoul El- Deen in Menofia
Azhar University
E-mail; dr.naser1974@gmail.com

Abstract

The present research discusses the Sunnah approach of guiding youth in various ways and it concludes with many findings. One of those findings is that Prophet Muhammad peace be upon him has uniquely brough up his companions; specially the youth in all fields of life and utilized various styles derived from the Holy Qur'an, Sunnah and life experiences. Prophet Muhammad peace be upon him has been careful about such variety of styles not to make his companions, let alone youth (May Allah be pleased with them all) feel desperate. In addition, that variety would surely establish the true value and care about the character of the Muslim himself in what is known as individual differences. Every Muslim has a different character from other fellow Muslims. Accordingly, Islamic values have been inculcated within the Muslim self through the verses of the Holy Qur'an and the prophetic traditions. While a value is being inculcated in the self of another Muslim throughout the style of story-telling or dialogue...etc. Each style inculcates a definite value or a new meaning in the self of a Muslim. Hence, the research has discussed a group of prophetic approaches utilized by Prophet Muhammad peace be upon him to bring up a unique and pioneering generation which would help the nation to live a precious and dignified life. The research consists of ten chapters. Each chapter handles an approach of those utilized by Prophet Muhammad peace be upon him in bringing up youth.

Keywords: Sunnah, approach, style, pedagogy, good example, motivation and intimidation, proverbs.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

المقدمـــة

الحمد لله، حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه، والصلاة والسلام على من جمعت كلُ خصالِ الخير فيه، وعلى آله وتابعيه.

وبعـــــد

فإن الشـــباب للأمة كالشـــمس للدنيا وكالعافية للأبدان، والشـــباب مرحلة من النمو والتطور الإنساني، تتوسط كلًا من مرحلتىّ سن الاحتلام والأربعين(١)، ولها سمات ومظاهر خاصة تميزها عن غيرها من المراحل، فهي بذلك تتأثر إلى حد كبير بقيم المجتمع وتقاليده وأعرافه، والشباب هم عصب الأمم، فهم نصـف الحاضـر وكل المسـتقبل، وبناء الشـباب على المنهج التربوي الإسـلامي فريضـة شــرعية(٢)، وضــرورة بشــرية؛ وذلك لحلِّ جميع مشــكلات العالم اليوم بطريقة متكاملة موزونة، تردُّ للإنسان إنسانيته التي سُلبت منه في القرون الأخيرة باسم المدنية والحضارة، ولذلك فإنهم يحتاجون في عملية البناء والتأسيس إلى التنوع في أساليب التربية.

وهذا البحث الذي نحن بصـدده يتناول موضـوعًا من أهمِّ الموضـوعات التي تشـغل بال جميع المربين والمصــلحين في كل زمان ومكان، ألا وهو بناء الشــخصــيَّة الموزونة المتكاملة، فكل الأفكار والمناهج والفلســفات تســعى لذلك، إلاَّ أنهم لن يجدوا ذلك إلاَّ في الإســلام؛ لأنه بالفعل هو المنهج الوحيد الذي بنى إنسانًا متوازنًا، وأقام حضارة أعادت للإنسان إنسانيَّتة.

---

(١) وهذه مرحلة القوة، وهي المرادة في قوله تعالى {اللهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَـعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَـعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاء وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِير} سورة الروم، الآية: ٥٤.

(٢) أما أنها فريضـة شـرعية فلأن الله ﷻ أمرنا باتباع رسـوله ﷺ وهديه فقال تعالى: {لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُـولِ اللهِ أُسْـوَةٌ حَسَـنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللهَ كَثِيرًا} [الأحزاب: ٢١] فهو ﷺ القدوة في كل شــيء، ففي كل الأمور التي واجهته تعامل فيها بطريقة فذَّة، وبسُــنَّة مطهرة أخرجت لنا كنوزًا هائلة من فنون التربية والتعامل.. فما أحوجنا إليه في عصرنا الحالي بل وفي كل العصور!

وكم كنت أتمنى أن أتوسَّــع في هذا الموضــوع نظرًا لأهميته، وحاجة المربين والمصــلحين إليه، ولكنني ســدَّدت وقاربت، وقمت بجمع ما له علاقة مباشــرة بموضــوع البحث، واكتفيت بذكر نماذج تُضيء الطريق، وتؤكِّد الفكرة.

ومما أجهدني في هذا البحث قلة عدد الصفحات المطلوبة مع وفرة المصادر التي كُتبت في موضوع التربية وصــناعة الرجال، واختلاف مناهج مؤلفيها؛ من حيث الإطناب أو الاختصــار .. إلى غير ذلك، وهذه الوفرة من المصــادر بهذه الصــورة، جعلتني أضــاعف الجهد، وأضــع **منهجية للبحث** محكمة للتعامل مع هذه المصادر، وتتلخَّص في المناهج التالية:

١- المنهج التاريخي: ومن خلاله قمت باســتعراض تربية الرســول ﷺ لصــحابته الكرام مع مراعاة التَّدرُّج التاريخي للأحداث–قدر الإمكان؛ وذلك بهدف تحديد نماذج إنسانية صالحة تُتّخذ قدوة بعد الرسول ﷺ، ومعرفة مدى تأثير الرسول ﷺ فيهم؛ بقصد الاستفادة من ذلك في واقعنا التربوي المعاصر.

٢- المنهج الوصفي: وهو مهم؛ لأنه الأسلوب الأكثر استخدامًا في الدراسات الإنسانية حتى الآن، فهو يعتمد على وصــف الظاهرة، وجمع المعلومات والبيانات، وبعدها لابُدَّ من تصــنيف هذه المعلومات والبيانات وتنظيمها من أجل تطوير الواقع الإنساني الذي ندرسه؛ كي يُؤَدِّي ذلك إلى فهم لعلاقات الإنسان الصالح المستقيم مع غيره من بني الإنسان.

٣- المنهج الاســتنباطي: وهو الاســتنباط من النصــوص بعد القراءة العميقة لها، ومعرفة ما كتبه السابقون فيها، وتحديد مفهومها التربوي، وتعزيزه والوصول إلى النتائج العلمية المتوقعة.

ولهذا قمت باســتخراج بعض النصــوص القرآنية ذات العلاقة بموضــوع صــناعة الرجال، وبناء الشــخصــية الإســلامية، والأســاليب في ذلك، واعتمدت في شــرح هذه الآيات وفهم معانيها على بعض كتب التفســير الموثَّقة، كتفســير الطبري، وابن كثير، والقرطبي، رحمهم الله جميعًا، وغير ذلك من التفاسير القيِّمة حسب الحاجة.

ثم اعتمدت بشــكلٍ رئيســي -قدر الإمكان- على ما صــحَّ من مروياتٍ في كتب السُّنَّة المعتمدة،

وعلى رأسها صحيحا البخاري ومسلم، وبعد ذلك دواوين السُّنَّة الأصلية والمشهورة، كالسنن الأربع، وغيرها، ثم المسانيد كمسند الإمام أحمد، وكذا المصنفات والمعاجم والمستدركات وغيرها من مؤلفات السنة النبوية.

ولم يكن النقل عن هذه المصادر مجرَّدًا من التوثيق والتصحيح؛ فقد حرصت على ذكر الحكم على الحديث -سواء عند المتقدمين أو المتأخرين أو حتى المعاصرين- وربما أدرس إسناد الحديث بنفسي إذا لم أجد حكمًا عليه، ولم أُثْبِتْ في هذا البحث إلاَّ ما قرأت له تصحيحًا -أو قبولاً على الأقلِّ- من عالم معتبرٍ، أو محدِّثٍ ثقة.

ويأتي بعد كتب السُّنَّة الأصلية كتب المغازي والسير والدلائل والشمائل، وهي كتب كثيرة، وبها أحداث وفيرة، ولكن يعيبها أن بها الكثير من الضعيف، بل والكثير مما لا أصل له؛ ومن ثَمَّ كان حرصي في هذا البحث -قدر المستطاع- على عدم النقل عن أحد هذه الكتب إلاَّ بعد الوقوق على تصحيح للرواية في الكتب التي اهتمَّت بتخريج أحاديث السيرة، أو كتب السيرة التي حرص فيها أصحابها على نقد الروايات، وعلى تقديم الصحيح على الضعيف، بالإضافة إلى كتب السيرة التي علَّق عليها، وخرَّج مواقفها علماء الحديث المعتبرون.

وقد أعرضت في هذا البحث عن كل موقف أو حديث لم أقف له على تخريجٍ.

وعند ذكر الموقف أو الحديث أعلِّق عليه وأذكر المستفاد منه، وهذا التعليق على الحديث كان أحيانًا نتيجة استنباط منّي، أو رؤية خاصَّة بي، وأحيانًا أخرى يكون نقلاً عن أحد العلماء الذين ألَّفوا في هذا الموضوع، وفي الحالة الأخيرة أُثْبِتُ الكتاب الذي نقلت عنه هذه الرؤية.

٤ـ منهج تحليل المحتوى: وفيه قمت بتحليل الآيات والأحاديث النبوية التي لها علاقة بموضوع بحثي للخروج بمبادئ ومفاهيم ودلالات تربوية، بعد الدراسة التحليلية الواعية للنصوص القرآنية والحديثية من كتب التفسير والحديث المعتبرة.

وبعد الانتهاء من البحث عرضت كل المراجع والمصادر التي اعتمدت عليها، ثمَّ رتَّبتها أبجديًّا على اسم المؤلف، متجاهل أداة التعريف "ال"؛ وذلك لتسهيل الوصول إلى المصدر أو المرجع

المطلوب، وقد ذكرت كذلك لكل مصدر الاسم الكامل له ولمؤلفه، وكذلك - قدر الإمكان - دار الطباعة والنشر، وبلدها، وسنة الطبع، ورقم الطبعة، كما حرصنا على ذكر أسماء المحققين أو المترجمين إن وُجدت.

هذا؛ وقد اجتهدت أن أشرح غريب الكلمات، وكذلك ضمَّنته بعض التراجم المهمة.

وما علينا نحن الآن إلاَّ أن نستثمر قدرات شباب الأُمَّة للوصول بهم إلى شاطئ الأمان ونور الهداية؛ فالشباب المسلم فيه كثير من الخير؛ ولكنه في حاجة إلى إيقاظ هذه الطاقات الخلاقة والهمم العالية، واستخراج ما عنده من كنوز؛ ليقود العالم كما قاده أجداده من قبل، فالعالم يعيش لحظات من التيه، ويئنُّ من الظلم والفساد في شتَّى بقاع الأرض، ويتمنَّى ظهور الجيل الذي يُخَلِّصه منه، بإذن من الله ﷻ، ثم هؤلاء القادة الربانيين، الذين لا يُريدون علوًّا في الأرض ولا فسادًا، والعاقبة للمتقين.

وفي هذه الدراسة سأتناول جانبًا معينًا من جوانب صناعة الشباب، ألا وهو الأساليب التي استخدمها النبي ﷺ لصناعة جيل متميز، وهو جيل الصحابة رضى الله عنهم، سيما الشباب، حتى تسلموا الرسالة منه، ونشروا الإسلام غضا طريا.

ولذا، استخرت الله تعالي في تناول الأساليب النبوية في غرس القيم عند الشباب بالبحث والدراسة؛ للمشاركة في المؤتمر العلمي الثالث الذي تقيمه كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين بجامعة الأزهر بالقاهرة، ضمن محاوره الرئيسة.

فاستعنت بالله تعالى على ما عزمت، وسميته: "المنهج النبوي في غرس القيم عند الشباب"، وأسأل الله أن يصحح قصدي، ويخلص نيتي، وأن ينفعني به في الدنيا والآخرة.

أسباب اختياري الموضوع كما يلي:

١-مكانة الشباب في القرآن والسنة.

٢-بيان كنوز السنة فيما يتعلق بمرحلة الشباب.

٣-حبي الشديد للشباب وحرصي على صلاحهم وإصلاحهم؛ فهم أمل الأمة، وعليهم الاعتماد في التنمية والارتقاء.

٤-المشاركة ضمن فعاليات المؤتمر العلمي الثالث الذي تقيمه كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين بالقاهرة.

دواعي البحث وأهميته: التنبيه على مكانة الشباب في القرآن والسنة، وبيان اهتمام علماء أمة الإسلام قاطبة بهم.

مشكلة البحث: كثرة الكتابات في الموضوع، وهو ما احتاج مني جهداً أكثر في استيعاب وانتقاء المناسب والمفيد منها.

تساؤلات البحث: وقد جاء هذا البحث ليجيب على تساؤلات مهمة منها:

١-هل اهتمت السنة النبوية بالحديث عن الشباب؟

٢-هل هناك أساليب معينة ومناسبة لتوجيه الشباب؟

٣-ما هو المنهج النبوي في غرس القيم عند الشباب؟ إلى غير ذلك من التساؤلات.

حدود البحث: جميع كتب السنة، حيث تتبعت جميع كتب الموسوعات العلمية الحاسوبية كالشاملة، واستخرجت منها كل ما يتعلق بالأساليب التي استخدمها النبي عليه الصلاة والسلام في توجيه الشباب، كي تجتمع الفائدة في مكان واحد.

الدراسات السابقة: بعد التتبع والاستقراء لهذا الموضوع، وقفت فيه على دراسات عدّة، أهمها:

١- أساليب الدعوة والتربية في السنة النبوية لزياد محمود العاني، دار السلام-دمشق، الطبعة الأولى، ٢٠٠٧م.

٢- الأساليب التربوية النبوية لتشجيع العمل المهني... لصالح العمرو، نشر: مركز ديبونو لتعليم التفكير، لسنة ٢٠١٣م.

٣- أساليب التحفيز التربوية في السنة النبوية، دراسة موضوعية، لمحمد صديق، دار المقتبس، لسنة ٢٠١٨م

٤- الأساليب النبوية في الدعوة ومحاولة المشركين لصدها لياسر عبد المطلب، الدار العالمية للنشر والتوزيع، لسنة ٢٠١٩م.

وبقية الدراسات أدرجت ضمن كتب التربية الإسلامية بصفة عامة وبصورة مختصرة، كما أني وجدت على شبكة المعلومات الدولية (الإنترنت) كثير من المقالات التي تحدثت عن الأساليب النبوية في

توجيه الشباب مدرجة في دوائر التربية الإسلامية فحسب، وليست مؤصلة، وهو الأمر الذي احتاج مني إلى مزيد من الجهد والبحث والتقصّي.

خطة البحث: يشتمل البحث على مقدمةٍ، وتمهيد، وعشرة مباحث، وخاتمةٍ، وثبتٍ للمراجع، وفهرس للموضوعات.

فالمقدمة: تشتمل على أهمية الشباب، وأنهم للأمة كالشمس للدنيا وكالعافية للأبدان، وبيان منهجية البحث، مع أسباب اختيار الموضوع، وأهميته، وحدوده، ومشكلته، والدراسات السابقة، وخطة البحث.

وأما التمهيد: فذكرت فيه التعريف بالمنهج والأساليب والشباب باختصار.

والمبحث الأول: أسلوب التربية بالآيات والسنن.

المبحث الثاني: أسلوب التربية بالقدوة.

المبحث الثالث: أسلوب التربية بالحوار.

المبحث الرابع: أسلوب التربية بالعبادة.

المبحث الخامس: أسلوب التربية بالقصة.

المبحث السادس: أسلوب التربية بالترغيب والترهيب.

المبحث السابع: أسلوب التربية بالعادة.

المبحث الثامن: أسلوب التربية بضرب الأمثال.

المبحث التاسع: أسلوب التربية بالحدث.

المبحث العاشر: أسلوب التربية بالعقوبة.

والخاتمة: بها أهم النتائج والتوصيات. ثم ثبت المراجع. وفهرس الموضوعات.

التمهيد

وقد جعلته في التعريف بالمنهج، ثم التعريف بالأساليب، ثم التعريف بالشباب

أولاً: التعريف بالمنهج:

المنهج والنّهج والمنهاج في اللغة بمعنى واحد هو: الطريق الواضح(١). قال الله تعالى: (لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا)(٢)

الشِّـرعة، هي الشـريعة. والمنهاج، الطريق البيّن الواضـح(٣)، قال الإمام الطبري: "لكل قوم منكم جعلنا طريقا إلى الحق يؤمّه، وسبيلا واضحًا يعمل به"(٤). والله تعالى جعل لنا طريقا واضحا في الدين، من نهج الأمر إذا وضح(٥).

وعليه فالمنهج النبوي يمكن أن يعرّف بأنه: الطريق الذي يبيّن به النبي الله صـلى الله عليه وسـلم أحكامَ الشريعة.

ثانيًا: التعريف بالأساليب:

عرفها ابن منظور" في لسـانه(٦)، والفيومي في مصـباحه(٧)، والزمخشـري في معجمه أسـاس البلاغة(٨)، وكانت تعريفاتهم تدور في فلك واحد معناه: أن الأسلوب بالضم كل طريق ممتد، ويُجمع على أساليب، وهو الفن... يقال أخذ فلان في أسـاليب من القول أي أفانين منه، وسـلكت أسـلوب فلان طريقته وكلامه على أساليب حسنة.

---

(١) مختار الصحاح للرازي ص٣٢٠، المكتبة العصرية بيروت.

(٢) المائدة/ ٤٨.

(٣)جامع البيان في تأويل القرآن الطبري (ت: أحمد شاكر) ج١٠، ص٣٨٣، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ٢٠٠٠م.

(٤) المصدر السابق.

(٥)أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي، ج٢، ص١٢٩، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ١٤١٨هـ.

(٦) ١/ ٤٧٣

(٧) المصباح المنير في غريب الشرح الكبير (١/ ٢٨٤)

(٨) أساس البلاغة (١/ ٤٦٨)

وأما تعريف الأسلوب اصطلاحا فيحكيه ابن خلدون عندما تناول الأسلوب في فصل صناعة الشعر ووجه تعلمه، فذكر ما خلاصته: أن الأسلوب فن يعتمد على صورة ذهنية تنصب في تراكيب لغوية، فتخرج كالقالب أو المنوال، فإن لكل فن من الكلام أساليب تختص به وتوجد فيه على أنحاء مختلفة فنجد أسلوب الشعر يختلف عن أسلوب النثر وأسلوب الفخر غير أسلوب الغزل...الخ (١).

ثالثًا: التعريف بالشباب:

الشباب من حيث المعنى اللغوي بمعنى: الفتاء والحداثة. يقال: شَبَّ الغُلاَمُ يَشِبّ شَبَابًا وشُبُوبًا، وشَبِيبًا، وأشبَّه الله، وأشبَّ الله قرنه، بمعنىً، والاسم الشبيبة، هو خلاف الشيب. والشباب جمع شَابٍّ وكذلك شُبَّانٌ وشَبَبَةٌ. وشباب الشيء أوله، يقال: لقيت فلانًا في شباب النهار، أي في أوله(٢).

وكلمة (شاب) تعني في أصلها اللغوي النماء والقوة. يقول ابن فارس: "الشين والباء أصل واحد يدل على نماء الشيء وقوته، في حرارة تعتريه"(٣).

والشباب فترة عمرية تبدأ من سن الحُلُم وحتى الأربعين، وهذه الفترة ذكرها الله تعالى في كتابه العزيز بالفتوة، كما في قوله عن أصحاب الكهف: {إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى}(٤).

ووصفها بالقوة كما في قوله سبحانه: {اللهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاء وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ}(٥).

ومرحلة القوة في هذه الآية والواقعة بين مرحلتي ضعف، هي مرحلة الشباب(٦).

---

(١) تاريخ ابن خلدون ١/ ٧٨٦، بتصرف.

(٢)انظر: ابن منظور، لسان العرب (١/ ٤٨٠) مادة (شبب).

(٣)انظر: معجم مقاييس اللغة، تحقيق وضبط عبد السلام هارون، الطبعة الأولى، القاهرة، دار إحياء الكتاب العربية، ١٣٦٨هـ، (٣/ ١٧٧).

(٤) سورة الكهف، الآية: ١٣.

(٥) سورة الروم، الآية: ٥٤.

(٦) انظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٣/ ٤٤٠).

كما وردت الإشارة إليها بصفات أخرى: كالأشُد، كما في قوله سبحانه وتعالى: {وَلاَ تَقْرَبُواْ مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ}(١)، والأشد هنا: الاحتلام كما قاله الشعبي ومالك وغير واحد من السلف(٢). وقيل: "هو بلوغ سن الرشد والقوة"(٣). وصفة الرشد وردت في قوله تعالى: {وَابْتَلُواْ الْيَتَامَى حَتَّىَ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُواْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ}(٤)، ففي هذه الآية دلالة واضحة على أن الرشد لا يكون قبل الاحتلام.

وفي السنة النبوية ورد ذكر هذه المرحلة بلفظ الشباب والفتيان وغيرهما، ومن ذلك حديث ابن مسعود ﷺعن النبي ﷺ قال: "يا مَعْشَرَ الشَّبَابِ من اسْتَطَاعَ مِنْكُمُ الْبَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ؛ فإنَّه أغضُّ للبصر، وأحصنُ للفرج..." (٥).

وقال جندب ﷺ: "كُنَّا مَعَ النبي ﷺ ونَحْنُ فِتْيان حزاوِرة(٦)، فتَعَلَّمنا الإيمانَ قَبْلَ أنْ نَتعلَّمَ القرآنَ، فازْدَدْنا به إيمانًا" (٧)

ومما سبق بيانه يمكن تحديد مرحلة الشباب بأنها المتوسطة بين سن الاحتلام والأربعين، وذلك لما يأتي:

قال تعالى: {وَإِذَا بَلَغَ الأَطْفَالُ مِنكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ} (٨).

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٥٢

(٢)تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٢/ ١٩٠).

(٣) تفسير القرآن الحكيم لمحمد رشيد رضا (٨/ ١٩٠)، الطبعة الثانية، بيروت، دار المعرفة.

(٤) سورة النساء، الآية: ٦.

(٥) أخرجه البخاري (رقم ٥٠٦٥)، ومسلم، برقم ١٤٠٠، واللفظ له، سبق تخريجه.

(٦) حزاورة: جمع حزور، وهو الغلام إذا اشتد وقوي. انظر: الصحاح للجوهري (٢/ ٦٢٩)، الطبعة الرابعة، بيروت، دار العلم للملايين، ١٩٩٠م مادة (حزور)

(٧) أخرجه ابن ماجه في المقدمة، باب في الإيمان برقم ٦١، والبيهقي في سننه الكبرى (٣/ ١٢٠ رقم ٥٠٧٥)، والطبراني في الكبير (٢/ ١٦٥ رقم ١٦٧٨)، وقال الكناني في مصباح الزجاجة (١/ ١٢ رقم ٢٢): هذا إسناد صحيح رجاله ثقات، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه برقم (٥٢).

(٨) سورة النور، الآية: ٥٩.

وعن علي رضي الله عنه عن النبي ﷺ: "رُفِعَ القَلَمُ عَن ثلاثةٍ: عَنِ النَّائِمِ حتَّى يَسْتَيْقِظ، وعَنِ الصَّبيِّ حتَّى يَشبّ، وعن المعتوه حتى يعقل"(١).

وبالنظر إلى هذه النصوص يتبين أن الله تعالى سمَّى الإنسان قبل الاحتلام طفلاً.

وأما التحديد المختار لمرحلة الشباب فهو: من البلوغ(٢) حتى بلوغ سن الأربعين.

وسبب هذا الاختيار أن الأصل اللغوي لكلمة الشباب يدل على أمرين: النماء والقوة، والمتأمل لآيات القرآن الكريم يجد أن سن الأربعين داخلة في هذا المعنى وأنها نهاية للنماء. كما في قوله سبحانه: {حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً}(٣)

يقول ابن كثير رحمه الله: {إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ}. أي قوي وشب وارتجل {وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً} أي تناهى عقله وكمل فهمه(٤).

---

(١) الترمذي، كتاب الحدود، باب فيمن لا يجب عليه الحد (٤/ ٣٢)، وقال: حسن غريب من هذا الوجه، والعمل على هذا عند أهل العلم. وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي برقم (١٤٢٣).

(٢) والبلوغ يكون إما بالعلامات الطبيعية كالاحتلام وإنبات الشعر الخشن حول القبل، وإما بالسن وهو بلوغ خمس عشرة سنة عند الحنابلة، وعند أبي حنيفة حتى يتم للذكر ثماني عشرة سنة. انظر: القاموس الفقهي، لسعدي أبو جيب، الطبعة الأولى، دمشق، دار الفكر، ١٤٠٢هـ (ص ٤٢).

(٣) سورة الأحقاف، الآية: ١٥.

(٤) تفسير القرآن العظيم (٤/ ١٥٨).

المبحث الأول: أسلوب التربية الكونية بالآيات والسنن الإلهية

إن أسـلوب التربية بالآيات الكونية والسـنن الإلهية؛ من أهم أسـاليب التوجيه التي اعتمدها الإسـلام في غرس القيم عند الشـباب وصـنع من خلالها الرجال، والتي تعني تلك الإشـارات الكونية التي تجذب القلب نحوها فيهفو إلى تأمُّلها وتدبُّرها، فيجدها شـاخصـة أمامه في آفاق الكون كالسـماوات والأرض والجبال، واختلاف الليل والنهار، والبراكين والزلازل، وأمواج البحار والمحيطات، والفُلك التي تجري في البحر، وفي نفسه، وما وهبه الله له من سمع وبصر وقلب، وصدق ربنا القائل:

﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ ﴾[١].

والآيات الكونية التي تدعو إلى تأمُّل الكون لم ينفرد بها القرآن الكريم وحده، بل نجد رسول الله ﷺ يُداوم على ذكر الآيات القرآنية التي تدلُّ على عظمة خلق الله لكونه العظيم، فقد ثبت أنه ﷺ كان يقرأ هذه الآيات العشـر من خواتيم سـورة آل عمران إذا قام من الليل يتهجُّد، فعن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال: بتُّ عند خالتي ميمونة[٢] فتحدَّث رسول الله ﷺ مع أهله ساعة ثم رقد، فلما كان ثلث الليل الآخر قعد فنظر إلى السماء، فقال:

﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَـَٔايَـٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَـٰذَا بَـٰطِلًا سُبْحَـٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ ﴾[٣] الآيات، ثم قام فتوضأ واستنَّ فصلى إحدى

---

(١) (فصـلت: ٥٣)، وقد حفل القرآن بآيات كونية كثيرة تدعو أصـحاب العقول النيرة الواعية إلى تأمُّل حركة الكون، وما فيه من مخلوقات تدلُّ دلالة واضحة على أن الله هو خالق الكون .

(٢) ميمونة بنت الحارث العامرية الهلالية زوج النبي ﷺ، تزوجها سنة ٧هـ، توفيت (٥١هـ) بسَرَف في الموضع الذي بنى بها فيه رسولُ الله ﷺ، وصلى عليها ابن عباس. انظر: ابن الأثير: أسد الغابة ٦/ ٢٧٥.

(٣) (آل عمران: ١٩٠-١٩١).

عشــرة ركعة[١]...[٢]، فهذه الآيات التي اختارها الرســول ﷺ ليتلوها في جوف الليل إقرارًا منه بعظمة الخالق الذي قام له ﷺ يُصَلِّي شكرًا له على نعمائه، التي لا تُعَدُّ ولا تُحْصَى، وفي ذلك تربية بالقدوة لأصحابه.

ولم يكتفِ رسول الله ﷺ بأن يراه أصحابه يتلو هذه الآيات فيقتدوا به، ولكنه وجَّههم توجيهًا مباشرًا إلى التفكُّر في آيات الله ﷻ في الكون، والترغيب فيه والترهيب من عدم التفكُّر، وذلك مثل قوله عند نزول آيات ســورة آل عمران الســابقة: "قَدْ نَزَلَتْ عَلَيَّ اللَّيْلَةَ آيَةٌ وَيْلٌ لِمَنْ قَرَأَهَا وَلَمْ يَتَفَكَّرْ فِيهَا"[٣]. لأن فيها دلالات واضحات على وجود الصانع ووحدانيته وعلمه وكمال قدرته لذوي العقول الخالصة الصافية، الذين يفتحون بصــائرهم للنظر والاســتدلال والاعتبار، لا ينظرون إليها نظر البهائم، غافلين عمَّا فيها من عجائب مخلوقاته وغرائب مبدعاته[٤].

وكان أول ما يدعو به النبي ﷺ في صــلاة الليل دعاء يدعو إلى الإقرار بما خلقه الله في هذا الكون، فعن أبي سلمة بن عبد الرحمن بن عوف[٥] قال: سألت عائشة أم المؤمنين: بأي شيء كان نبي الله ﷺ يفتتح صلاته إذا قام من الليل؟ قالت: كَانَ إِذَا قَامَ مِنَ اللَّيْلِ افْتَتَحَ صَــلاتَهُ: "اللَّهُمَّ رَبَّ جَبْرَائِيلَ وَمِيكَائِيلَ وَإِسْــرَافِيلَ، فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ، عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ.."[٦].

---

(١) البخاري: كتاب التفسير، باب سورة آل عمران، (٤٢٩٣).

(٢) عبد الرحمن النحلاوي: التربية بالآيات، دار الفكر، دمشق، الطبعة الثالثة، ١٤٢٤هـ=٢٠٠٣م، ص٢٩١، ٢٩٢.

(٣) ابن حبان في صحيحه: كتاب الرقائق، باب التوبة، (٦٢٠) من حديث عائشة رضي الله عنها، قال شعيب الأرناءوط: إسناده صحيح على شرط مسلم.

(٤) أبو الحسـن عبيد الله بن محمد عبد السـلام المباركفوري: مرعاة المفاتيح، شـرح مشـكاة المصـابيح، إدارة البحوث العلمية والدعوة والإفتاء، الثالثة، ١٤٠٤هـ=١٩٨٤م، ٤/ ١٧٣.

(٥) أبو سـلمة بن عبد الرحمن بن عبد عوف: اسـمه كنيته، يروي عن ابن عباس وأبي هريرة وابن عمر وغيرهم، وروى عنه الزهري ومحمد بن إبراهيم التيمي ويحيى بن أبي كثير، وكان من ســادات قريش، وكان ثقة فقيهًا كثير الحديث، مات سـنة أربع ومائة، وقد قيل: سـنة أربع وتسـعين. انظر الثقات لابن حبان (٥/ ١، ٢) وتهذيب التهذيب (١٢/ ١٠٣، ١٠٤).

(٦) مسلم: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه، (٧٧٠).

وأحيانًا أخرى نجده ﷺ يوظّف آية من آيات الله ﷻ في الآفاق ليقوم بتربية الشباب المسلم والأمة كلها من خلالها، فعندما كسفت الشمس عند موت ابنه إبراهيم، قال ﷺ: "إِنَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ آيَتَانِ مِنْ آيَاتِ اللهِ لا يَخْسِفَانِ لِمَوْتِ أَحَدٍ وَلا لِحَيَاتِهِ". وبعدما لفت الانتباه نحو تأمُّل هاتان الآيتان والتفكُّر فيهما، توجَّه نحو هدف تربوي آخر، ألا وهو تربية المسلم على النظر المتعمِّق والتأمُّل الدقيق، فقال: "فَإِذَا رَأَيْتُمْ ذَلِكَ فَادْعُوا اللهَ وَكَبِّرُوا، وَصَلُّوا وَتَصَدَّقُوا". ولم يتوقَّف الأمر عند هذا الحد؛ بل إنه ﷺ أراد الاستزادة من تحقيق أهداف تربوية أخرى من خلال هذه الآية العظيمة، فقال: "يَا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ؛ وَاللهِ مَا مِنْ أَحَدٍ أَغْيَرُ مِنَ اللهِ أَنْ يَزْنِيَ عَبْدُهُ أَوْ تَزْنِيَ أَمَتُهُ، يَا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ؛ وَاللهِ لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلاً وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا"(١).

فتجده ﷺ يُحَقِّق أكثر من هدف من خلال آية واحدة من آيات الله ﷻ في الآفاق، ففي ظلِّ اندهاش الناس عند رؤيتهم لكسوف الشمس –وهي آية عظيمة من آيات الله في الآفاق– ومحاولتهم تفسير هذه الظاهرة الجديدة على أنظار الكثيرين منهم، نجد رسول الله ﷺ يُوَجِّههم إلى التأمُّل في كل آية لله ﷻ في الآفاق حتى المألوف منها، وأن يبحثوا عن تفسيرات علمية صحيحة لما سيُصادفونه من ظواهر أثناء تقليبهم صفحات كتاب الله المنظور.

ثم يربط ﷺ هذه الظاهرة القليلة الحدوث التي تشخص لها الأبصار وتهتز عند رؤيتها الأفئدة –ربطها بمشاعر الخشية من خالق هذه الظاهرة ومحدثها، والرغبة في رحمته ومغفرته والالتجاء الصادق إليه، والرغبة في التقرب إليه؛ مما يدفع الإنسان نحو القيام بأعمال الخير من صلاة وصدقة، والابتعاد عن كل ما يوجب غضب الله تعالى من فواحش.

والنبي ﷺ استخدم هذا الأسلوب القرآني في غرس قيم الإيمان، وما يستتبعه من شكر لله ﷻ ومن تعظيم وإجلال، فقال ﷺ واصفًا خلق الإنسان: "إِنَّهُ خُلِقَ كُلُّ إِنْسَانٍ مِنْ بَنِي آدَمَ عَلَى سِتِّينَ وَثَلاثِمِائَةِ مَفْصِلٍ"، فلفت ﷺ الأنظار نحو هذه الآية، التي لا تستوقف الكثير من البشر؛ ليستتبع ذلك الإحساس بمدى عظم النعمة التي أنعمها عليه الله ﷻ، ثم بدأ في الترغيب في الشكر على هذه النعمة فقال: "فَمَنْ كَبَّرَ اللهَ وَحَمِدَ اللهَ وَهَلَّلَ اللهَ

---

(١) البخاري: كتاب الكسوف، باب الصدقة في الكسوف (٩٩٧) عن عائشة رضي الله عنها، وابن حبان في صحيحه (٢٨٤٦)، ونحوه عند الحاكم في المستدرك (١٢٤٣).

وَسَبَّحَ اللهَ وَاسْتَغْفَرَ اللهَ". ولم يوقف النبي ﷺ الشكر على هذه النعمة عند حدِّ التوجُّه إلى الله ﷻ بالتكبير والحمد والاستغفار؛ بل عدَّاه ﷺ إلى الشكر بأداء حقِّ هذه النعمة بطريقة متعدية النفع، فقال: ".. وَعَزَلَ حَجَرًا عَنْ طَرِيقِ النَّاسِ، أَوْ شَوْكَةً، أَوْ عَظْمًا عَنْ طَرِيقِ النَّاسِ، وَأَمَرَ بِمَعْرُوفٍ أَوْ نَهَى عَنْ مُنْكَرٍ عَدَدَ تِلْكَ السِّتِّينَ وَالثَّلاثِمِائَةِ السُّلاَمَى، فَإِنَّهُ يَمْشِي يَوْمَئِذٍ وَقَدْ زَحْزَحَ نَفْسَهُ عَنِ النَّارِ"(١).

وفي قوله ﷺ: "إِنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا، ثُمَّ يَكُونُ عَلَقَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَكُونُ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَبْعَثُ اللهُ إِلَيْهِ مَلَكًا بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ، فَيُكْتَبُ عَمَلُهُ وَأَجَلُهُ وَرِزْقُهُ وَشَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ، ثُمَّ يُنْفَخُ فِيهِ الرُّوحُ، فَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلاَّ ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فَيَدْخُلُ الْجَنَّةَ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلاَّ ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ، فَيَدْخُلُ النَّارَ"(٢). نجد أن النبي ﷺ يُرَسِّخ مبدأ الإيمان بالقدر عن طريق لفت الأنظار نحو آية من آيات الله ﷻ في الأنفس؛ وهي: مراحل خلق الإنسان في رحم أُمِّه، فهذا الإنسان الذي لا حول له ولا قوة حال وجوده في رحم أُمِّه، هو نفسه الإنسان الذي يرى أنه لن يقدر عليه أحد، ويرى أنه بعقله وعلمه وبراعته وحده استطاع أن يُحَصِّل رزقه.. إلى آخر تلك المزاعم، فقد استحضر النبي ﷺ أمام عيني هذا الإنسان حالته التي كان عليها وهو في رحم أُمِّه، وهو لا يقدر على شيء؛ لكي يفتح بذلك بابًا للإقناع بما سيطرحه من قضايا القدر؛ حيث إنَّ عَمَل الإنسان وأجله ورزقه ومصيره هو قدر مقدور وكتاب مسطور.

وهناك نوع آخر من الآيات؛ وهي السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد، والتي يمكن التعبير عنها بأنها القوانين التي تحكم نظام الكون والحياة، وسلوك الإنسان على السواء؛ فهي سُنن الله الجارية في عباده، والتي يشعر معها الإنسان أنه قادر على الإحجام والإقدام، وأنه يستطيع الفعل كما يستطيع الترك، ولكنه حين يُحجم أو يقدم لا يحصل على نتيجة واحدة، وإنما هناك نتائج تترتب على الإحجام، وأخرى تترتب على الإقدام؛ أي أن هناك نتائج تُشبه أن تكون محتومة تترتَّب على كل من الفعل والترك، وهذا اللون من سُنن الله

---

(١) مسلم: كتاب الزكاة، باب أن اسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف (١٠٠٧) عن عائشة رضي الله عنها.

(٢) البخاري: كتاب الأنبياء، باب خلق آدم صلوات الله عليه وذريته برقم (٣٣٣٢)، ومسلم: كتاب القدر، باب كيفية خلق الله للآدمي وكتابة رزقه وأجله وعمله وشقاوته وسعادته (٢٦٤٣).

قد أراده الله ورتَّب عليه رُقِيَّ البشر وتخلُّفهم في الأخلاق والاجتماع والإنسانيات على العموم(١).

ومن هذه الآيات والسنن سُنَّة التدافع بين الحقِّ والباطل؛ فهذه سُنَّة من سنن الله في الأمم والأفراد، ناهيك عن كونها سُنَّة من سنن الكون، فالكون كله قائم على التنازع بين الحقِّ والباطل، والتدافع بين الحقِّ والباطل، وهو في حقيقته تدافع بين أصحاب الحقِّ وأصحاب الباطل؛ أي: بين المؤمنين وبين غيرهم؛ لأنهم هم الذين يحملون معاني الحقِّ أو معاني الباطل، ويسعون إلى إظهار هذه المعاني في الخارج، وإقامة شئون الحياة على أساسها، فيحصل التعارض والتزاحم والتدافع بين الفريقين؛ بين المؤمنين وغيرهم، وهو أمر لا بُدَّ منه؛ لأنهما ضدَّان، والضدَّان لا يجتمعان؛ ولأن تطبيق أحدهما يستلزم مزاحمة الآخر وطرده وإزالته، أو على الأقل إضعافه ومنعه من أن يكون له تأثير في واقع الحياة، فلا يُتَصَوَّر إذًا أن يعيش الحقُّ والباطل في سلم من دون غلبة أحدهما على الآخر(٢).ولقد حفل القرآن الكريم بالكثير من الآيات التي تُقَرِّر هذا المبدأ الإلهي؛ مثل قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٧ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾(٣)، والمراد بإحقاق الحقِّ هنا إظهاره، وهو أن يظهر الإسلام، والحقُّ حقٌّ أبدًا، ولكن إظهاره تحقيق له من حيث إنه إذا لم يظهر أشبه الباطل(٤).

وكان النبي ﷺ يحرص على غرس ذلك المبدأ الإلهي في نفوس صحابته، بأن الله ناصرهم ما داموا أنهم على الحقِّ، فعَنْ خَبَّابٍ قَالَ: أَتَيْنَا رَسُولَ اللهِ ﷺ وَهُوَ مُتَوَسِّدٌ بُرْدَةً فِي ظِلِّ الْكَعْبَةِ، فَشَكَوْنَا إِلَيْهِ فَقُلْنَا: أَلَا تَسْتَنْصِرُ لَنَا، أَلَا تَدْعُو اللهَ لَنَا؟ فَجَلَسَ مُحْمَرًّا وَجْهُهُ، فَقَالَ: "قَدْ كَانَ مَنْ قَبْلَكُمْ يُؤْخَذُ الرَّجُلُ فَيُحْفَرُ لَهُ فِي الْأَرْضِ، ثُمَّ

(١) انظر: مجدي محمد محمد عاشور: السنن الإلهية في الأمم والأفراد، دار السلام، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٢٧هـ=٢٠٠٦م، ص٣٧.

(٢) عبد الكريم زيدان: السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٢٣هـ=٢٠٠٢م، ص٤٥، بتصرف.

(٣) (الأنفال: ٧، ٨).

(٤) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، ٧/ ٣٦٩.

يُؤْتَى بِالْمِنْشَارِ، فَيُجْعَلُ عَلَى رَأْسِهِ، فَيُجْعَلُ فِرْقَتَيْنِ، مَا يَصْرِفُهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَيُمْشَطُ بِأَمْشَاطِ الْحَدِيدِ مَا دُونَ عَظْمِهِ مِنْ لَحْمٍ وَعَصَبٍ، مَا يَصْرِفُهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَاللهِ لَيُتِمَّنَّ اللهُ هَذَا الأَمْرَ حَتَّى يَسِيرَ الرَّاكِبُ مَا بَيْنَ صَنْعَاءَ وَحَضْرَمُوتَ مَا يَخَافُ إِلاَّ اللهَ تَعَالَى وَالذِّئْبَ عَلَى غَنَمِهِ، وَلَكِنَّكُمْ تَعْجَلُونَ"(١).

فالرسول ﷺ وهو الناطق بالحقِّ يُقسم أن سُنَّة الله في الأرض أن ينتصر الحقُّ على الباطل، وسيتمُّ ما جاء به الرسول ﷺ من دعوته للإسلام ولو كره المشركون.

وبعد: فهذا هو أسلوب التربية بالآيات والسُّنَن الإلهية كأسلوب إسلامي رائع، استخدمه القرآن الكريم في مواضع عديدة، وجاءت به السُّنَّة في مواقف شتَّى؛ وذلك لما يُحَقِّقه من أهداف تربوية متعددة إيمانية وعقلية ونفسية وذوقية، فعلينا أن نُعْلِيَ من قدر هذا الأسلوب؛ لكي نتمكن من صناعة شباب ورجال ينهضون بأُمَّتهم على أساس من الإيمان والأخلاق والعلم.

(١) أبو داود في سننه: كتاب الجهاد، باب الأسير يكره على الكفر، (٢٦٤٩)، وأحمد في مسنده، (٢١١١٠). وقال الألباني: صحيح.

المبحث الثاني: أسلوب التربية بالقدوة

القدوة وسيلة من أهم وسائل صناعة الرجال؛ لما لها من أهمية كبرى في ترجمة القيم والمبادئ ترجمة عملية؛ ولذلك أرسل الله أنبياءه ليُحَوِّلوا المنهج النظري إلى حقيقة ملموسة وواقع عملي؛ فأصبحوا بذلك قدوة لأممهم الذين أُرسلوا إليهم، بل وأمر الله ﷻ نبيَّه محمد ﷺ أن يقتدي بهم، قال تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ ﴾ (١).

وعندما أرسل الله نبيَّه لهداية العالمين أرسل معه كتابه العظيم منهاجًا وشرعة لهم، وجعله قدوة حيَّة متكاملة، يعيش بينهم، ويأكل مثلهم، ويكلِّمهم، ويتحاور معهم، ويوجِّههم، ويتجاوز عن هناتهم، ويسعد لسعادتهم، ويحزن لحزنهم.. قال الله تعالى عنها: ﴿لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ ...﴾ (٤٧)، فالله تعالى وضع في نبيِّه ﷺ الصورة الحية والكاملة للمنهج الإسلامي، فكان ﷺ بهذه الشخصية المتكاملة قدوة في كل شأن من شئون الحياة، فظهرت في شخصه ﷺ صورًا عديدة للقدوة العملية، كلُّ صورة منها قادرة على تغيير سلوك جموع كثيرة من البشر، فما بالنا لو اجتمعت كلها لتكوِّن منهجًا تربويًّا تتربَّى عليه جموع الأمة!

فصنع ﷺ بذلك رجالاً عظماء، فأيُّ "نظرية ما مهما تبلغ من صحَّة المنهج ودقَّة الفكر، وإنَّ تعليمًا ما مهما يكن رائعًا، ويقع من الناس موقع الإعجاب، وإن هداية مهما تجمع من صنوف الخير، كل أولئك لا يُغني غناءً ولا يثمر ثمرةً ولا يَبقى على الدهر إلاَّ إذا كان له مِنْ مِثْلِه يُعَلِّمه ويدعو إليه بأخلاقه وفضائله، ويُعَرِّفه إلى الناس بالقدوة والأسوة، فيقتدي الناس بدعوته عن طريق العمل بعد العلم، معجبين بسجايا هؤلاء الدعاة، معظِّمين لأخلاقهم ورجاحة عقولهم، وحصافة آرائهم، وسداد أفكارهم"(٢).

ففي المرحلة المكيَّة كان النبي ﷺ قدوة لأصحابه الكرام ومثالاً يُحتذى به في الصدق والأمانة والصبر

---

(١) (الأنعام: ٩٠).

(٢) انظر: سعيد إسماعيل علي: السنة النبوية رؤية تربوية، دار الفكر العربي، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٢٣هـ=٢٠٠٢م، ص٣٥٦-٣٥٨.

والثبات، حتى إن قريشًا وَصَفَتْهُ -قبل بعثته- بالصادق الأمين؛ لما عاهدته عليه من صدق الحديث وحفظ الأمانة، حتى تكذيبهم إيَّاه عندما جاءهم بالرسالة الجديدة لم يكن ذلك تكذيبًا لشخصه الشريف؛ بل كان من صميم جحودهم وإنكارهم لوحدانية الله تعالى، كما قال: ﴿قَدۡ نَعۡلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحۡزُنُكَ ٱلَّذِي يَقُولُونَۖ فَإِنَّهُمۡ لَا يُكَذِّبُونَكَ﴾[(١)].

أما صبره ﷺ على البلاء والإيذاء فقد قَدَّم فيه رسول الله ﷺ أروع المثل، فقد تعرَّض شخصه الشريف لإهانات كفار قريش المستمرَّة من سب، وافتراء، وإيذاء.. إلخ، ولكنها لم تزده إلا صبرًا وثباتًا، فرأى أصحابه منه ذلك فساروا على دربه، وكذلك كان الحال في المرحلة المدنية، التي شيَّد فيها رسول الله ﷺ دولته، وبنى دعائمها يدًا بيدٍ مع أصحابه، بداية من مشاركته إياهم في بناء المسجد، بل في كل أمر من أمور حياتهم، فها هو ذا ﷺ يواسي أصحابه ويهتمُّ بأمورهم، فسُرَّتْ بذلك قلوبهم، وأحبُّوه أكثر من أنفسهم وأبنائهم وأموالهم.

ومن الأمثلة الرفيعة التي قدَّم فيها الرسول ﷺ القدوة والمثل زهده في متاع الحياة الفانية، وملذَّات الدنيا وشهواتها، ولم يكن هذا عن فقر أو عدم استطاعة، بل لو أراد أن يجعل الله له جبال مكة وأوديتها وبواديها ذهبًا لاستجاب له الله ﷻ، فعن أبي أمامة ﷺ قال: قال النبي ﷺ: "عَرَضَ عَلَيَّ رَبِّي لِيَجْعَلَ لِي بَطْحَاءَ مَكَّةَ ذَهَبًا قُلْتُ: لا يَا رَبِّ، وَلَكِنْ أَشْبَعُ يَوْمًا وَأَجُوعُ يَوْمًا -وَقَالَ ثَلاثًا أَوْ نَحْوَ هَذَا- فَإِذَا جُعْتُ تَضَرَّعْتُ إِلَيْكَ وَذَكَرْتُكَ، وَإِذَا شَبِعْتُ شَكَرْتُكَ وَحَمِدْتُكَ"[(٢)]. وبهذا كان ﷺ مثالاً لأصحابه في عدم التعلُّق بحطام الدنيا الفانية.

كما عَلَّم النبي ﷺ صحابته الجود والكرم، ولكنه جود وكرم من نوع خاص؛ لأنه يُؤَدِّى ابتغاء مرضاة الله وليس للفخر والتباهي، كما كان يُفْعَل في الجاهلية، فكان ﷺ القدوة والمثل في ذلك، وسار على ضربه صحابته رضوان الله عليهم؛ فها هو ذا أنس بن مالك ﷺ يقول عن رسول الله ﷺ: "مَا سُئِلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَى الإِسْلاَمِ شَيْئًا إِلاَّ أَعْطَاهُ". قَالَ: فَجَاءَهُ رَجُلٌ فَأَعْطَاهُ غَنَمًا بَيْنَ جَبَلَيْنِ، فَرَجَعَ إِلَى قَوْمِهِ، فَقَالَ: يَا قَوْمِ؛ أَسْلِمُوا فَإِنَّ مُحَمَّدًا

---

(١) (الأنعام: ٣٣).

(٢) الترمذي في سننه: كتاب الزهد، باب الكفاف والصبر، (٢٣٤٧)، قال الترمذي: حسن.

يُعْطِي عَطَاءً لاَ يَخْشَى الْفَاقَةَ[١].

وكان النبي ﷺ -أيضًا- مثالاً يحتذى به في العفو والصفح، وهذا لم يكن مطلقًا ضربًا من الضعف أو الخنوع؛ بل دليل القوَّة والقدرة في أعظم صورهما، وقد حفظت لنا كتب الحديث والسير مواقف عديدة عن صفحه وعفوه؛ مما يدلُّ على نبل أخلاقه وعظيم شمائله، نذكر منها موقفه مع قريش عند فتح مكة، فبرغم ما لاقاه ﷺ وصحابته الكرام من أذًى على أيديهم طوال ثلاث عشرة سنة، إلاَّ أن النبي ﷺ ما زاد على قوله: "اذْهَبُوا فَأَنْتُمُ الطُّلَقَاءُ"[٢]. فما كان منهم إلا أن دخلوا جميعًا في دين الله.

وفي شجاعته كذلك كان الرسول ﷺ هو القدوة الراشدة لأصحابه ولعامة المسلمين، فقد استطاع أن يُشيِّد أُمَّة من الفتات المتناثرة، فإذا هي بناء ضخم لا يطاوله شيء في التاريخ، وبجانب كونه رجل حرب يضع الخطط ويقود الجيوش ويحارب وينتصر، كان -أيضًا- مثالاً وقدوة في الشجاعة والثبات في المواقف الصعبة، لا سيَّما عندما يحمى وطيس الحرب وتشتدُّ الأزمة في ساحات القتال، وخير ما نسوقه هنا موقفه ﷺ في غزوة حنين حين فرَّ المسلمون من ساحة القتال، ولم يثبت معه ﷺ سوى القلَّة من أهل بيته، ومنهم العباس بن عبد المطلب، والذي روى لنا أحداث الغزوة، فقال: شَهِدْتُ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ يَوْمَ حُنَيْنٍ فَلَزِمْتُ أَنَا وَأَبُو سُفْيَانَ بْنُ الْحَارِثِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ رَسُولَ اللهِ ﷺ، فَلَمْ نُفَارِقْهُ وَرَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَى بَغْلَةٍ لَهُ بَيْضَاءَ، أَهْدَاهَا لَهُ فَرْوَةُ بْنُ نُفَاثَةَ الْجُذَامِيُّ، فَلَمَّا الْتَقَى الْمُسْلِمُونَ وَالْكُفَّارُ وَلَّى الْمُسْلِمُونَ مُدْبِرِينَ، فَطَفِقَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَرْكُضُ بَغْلَتَهُ قِبَلَ الْكُفَّارِ، قَالَ عَبَّاسٌ: وَأَنَا آخِذٌ بِلِجَامِ بَغْلَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَكُفُّهَا؛ إِرَادَةَ أَنْ لاَ تُسْرِعَ، وَأَبُو سُفْيَانَ آخِذٌ بِرِكَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ "أَيْ عَبَّاسُ؛ نَادِ أَصْحَابَ السَّمُرَةِ". فَقُلْتُ بِأَعْلَى صَوْتِي: أَيْنَ أَصْحَابُ السَّمُرَةِ؟ قَالَ: فَوَاللهِ! لَكَأَنَّ عَطْفَتَهُمْ حِينَ سَمِعُوا صَوْتِي عَطْفَةُ الْبَقَرِ عَلَى أَوْلاَدِهَا، فَقَالُوا: يَا لَبَّيْكَ، يَا لَبَّيْكَ[٣]. والسمرة هي الشجرة التي بايعوا تحتها بيعة الرضوان، وهذا الموقف يُوَضِّح مدى أهمية القدوة العملية، التي تمثَّلت في النبي ﷺ، فكان بحقٍّ أول مربٍّ علَّم الإنسانية كيف تُعالج المواقف والأزمات؛ فالجنود

---

(١) مسلم: كتاب الفضائل، باب ما سئل رسول الله ﷺ شيئًا قط فقال: لا. وكثره، (٢٣١٢).

(٢) ابن هشام: السيرة النبوية، ٢/ ٤١١.

(٣) مسلم: كتاب الجهاد والسير، باب في غزوة حنين، (١٧٧٥).

مهما أُلْقِي إليهم من خطب ودروس في الشجاعة والفداء، لن يتأثَّرُوا مثلمَّا تأثر الصحابة الكرام من ثبات النبي ﷺ وملاقاته للعدوِّ بشجاعته المنقطعة النظير؛ فكان ذلك حافزًا لهم بأن يعودوا إلى ساحة القتال مرَّة أخرى، فيثبتوا كما ثبت قدوتهم، ويحاربوا عدوهم بكل ما أوتي لهم من قوَّة فكان النصر حليفهم.

وفي أشدِّ المواقف نجده ﷺ يستخدم أسلوب القدوة لتوجيه وتعليم أصحابه السبيل الصحيح، الذي يجب أن يسيروا فيه، وإلاَّ هلكوا بعصيانهم لأوامر الله ورسوله، فعن عمر رضي الله عنه قال:... فَلَمَّا فَرَغَ مِنْ قَضِيَّةِ الْكِتَابِ، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لأَصْحابِهِ: "قُومُوا فَانْحَرُوا ثُمَّ احْلِقُوا". قَالَ: فَوَاللهِ مَا قَامَ مِنْهُمْ رَجُلٌ حَتَّى قَالَ ذَلِكَ ثَلاثَ مَرَّاتٍ، فَلَمَّا لَمْ يَقُمْ مِنْهُمْ أَحَدٌ، دَخَلَ عَلَى أُمِّ سَلَمَةَ[١] فَذَكَرَ لَهَا مَا لَقِيَ مِنَ النَّاسِ، فَقَالَتْ أُمُّ سَلَمَةَ: يَا نَبِيَّ اللهِ؛ أَتُحِبُّ ذَلِكَ؟ اخْرُجْ ثُمَّ لا تُكَلِّمْ أَحَدًا مِنْهُمْ كَلِمَةً؛ حَتَّى تَنْحَرَ بُدْنَكَ، وَتَدْعُوَ حَالِقَكَ فَيَحْلِقَكَ. فَخَرَجَ فَلَمْ يُكَلِّمْ أَحَدًا مِنْهُمْ حَتَّى فَعَلَ ذَلِكَ؛ نَحَرَ بُدْنَهُ، وَدَعَا حَالِقَهُ فَحَلَقَهُ، فَلَمَّا رَأَوْا ذَلِكَ قَامُوا فَنَحَرُوا، وَجَعَلَ بَعْضُهُمْ يَحْلِقُ بَعْضًا، حَتَّى كَادَ بَعْضُهُمْ يَقْتُلُ بَعْضًا غَمًّا[٢].

ومما سبق يظهر لنا بوضوح مدى تأثير أسلوب القدوة في سرعة الاتباع؛ ولذلك كان من أهم الأساليب التربوية التي استخدمها النبي ﷺ في صناعة الجيل الفريد الذي سار بالأُمَّة إلى بَرِّ النجاة، وما ذكرناه سابقًا من نماذج عمليَّة تُوضِّحُ وتُبَيِّن قدوة النبي المربِّي ﷺ ما هي إلاَّ غيض من فيض من كريم مآثره؛ فسيرته العطرة مليئة بالمواقف العظيمة التي تجلَّت فيها معاني القدوة.

---

(١) أم سلمة: أم المؤمنين، هند بنت أبي أمية، عُرف أبوها بزاد الراكب لشدة كرمه، صحابية من بني مخزوم، كان زوجها أبو سلمة بن عبد الأسد صحابيًّا من السابقين إلى الإسلام، فتوفي عنها؛ فتزوجت رسول الله ، كانت أول مهاجرة تصل إلى المدينة المنورة، وتوفيت أم سلمة سنة ٦٠هـ، وقيل: سنة ٥٩هـ. وصلى عليها أبو هريرة رضي الله عنه.

(٢) البخاري: كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد، (٢٥٨١).

المبحث الثالث: أسلوب التربية بالحوار

الحوار هو السمة المميزة للجنس البشري، ووسيلة مهمة من وسائل بناء الحضارة الإنسانية، لما له من دور في ترسيخ القيم والأفكار، بما يمثله من حالة اتصالية بين الناس؛ فعن طريقه تتناقل الأفكار والخبرات فيما بينهم، وعن طريقه يمكنهم التعبير عن وجهات نظرهم، ونقل انطباعاتهم نحو ما يحيط بهم من ظواهر في الكون، وما يتعرَّضون له في الحياة.

والحوار قيمة يتميز بها المنهج الإسلامي في صناعة الرجال؛ فالمربِّي إذا كان يسعى لنشر قيمه وغرس تعاليمه من خلال وسائل وأساليب، فإن أهمَّ وسيلة هي الكلمة والحوار؛ ولذلك كثر استعماله في الكتاب والسُّنَّة، ولا يخلو منه زمان، ولا يستغني عنه نبي ولا عالم ولا مربٍّ، وكما هو واقع في الدنيا فهو موجود في الآخرة كذلك، بل في الجنة والنار، ففيهما حوار وجدال ومحاجَّة ومخاصمة[١]، وما ذلك إلاَّ لأهميته؛ "لما فيه من تشويق، وشحذ للذهن، وتقريب للمعاني، وتشخيص للحقائق، وتشجيع على المبادءة والمشاركة الذاتية في عملية التعليم والتربية"[٢].

وكان الحوار هو منهج الأنبياء في تبليغ رسالاتهم إلى أقوامهم، ولقد حكى القرآن الكريم كثيرًا من حواراتهم هذه؛ مثال ذلك ما حكاه ربُّ العالمين من حوار إبراهيم عليه السلام مع أحد الطغاة، الذي أنكر ألوهية الحقِّ تبارك وتعالى، ومع أبيه عن الأذهان ببعيد.

حيث أقام إبراهيم عليه السلام بالحوار الحجَّة على هذا الملك المدعي للألوهية والربوبية، وأثبت ببرهانه القاطع أن الله سبحانه وتعالى هو خالق السماوات والأرض، وأنه يحيي ويميت، وبيده مقاليد الأمور، وما سواه مخلوق لا يملك أن يخلق لنفسه شيء.

والنبي ﷺ –شأن سائر أنبياء الله عليهم السلام– قد استخدم الحوار كوسيلة لتبليغ رسالة الإسلام، وعرض أسس العقيدة من توحيد الله سبحانه وتعالى وإبطالٍ لعبادة كل ما سواه، ولكنه ﷺ لم يقصر الحوار على هذا

(١) انظر: يحيى بن محمد حسن بن أحمد زمزمي: الحوار آدابه وضوابطه في ضوء الكتاب والسنة، دار التربية والتراث، مكة المكرمة، رمادي للنشر، الدمام، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ=١٩٩٤م، ص٣٣.

(٢) عبد الحميد الصيد الزنتاني: أسس التربية الإسلامية في السنة النبوية، ص٢٠٥.

الجانب من جوانب رسالة الإسلام؛ بل تعدى استخدام الجانب التربوي والتعليمي، الذي كان هدفه تعليم المسلمين الأحكام الإسلامية من عبادات ومعاملات وأخلاق وحدود، وقد وردت في السُّنَّة النبوية المطهرة نماذج كثيرة للحوار، الذي يُثبت العقيدة ويدافع عن الشبهات؛ سواء بينه ﷺ وبين المؤمنين بغرض ترسيخ هذه العقيدة، أو بينه وبين المشركين بغرض إقناعهم بعقيدة التوحيد، أو الدفاع عنها عن طريق الردِّ على شبهاتهم، ومن ذلك ما كان من وفد نصارى نجران، الذين جاءوا إلى النبي ﷺ فقال لهم رسول الله ﷺ: "أَسْلِمُوا". قالوا: أسلمنا قبلك. قال: "كَذَبْتُمْ، يَمْنَعُكُمْ مِنَ الإِسْلامِ ادِّعَاؤُكُمْ لله ولدًا وَعِبَادَتُكُمُ الصَّلِيبَ وَأَكْلُكُمُ الخنزِيرَ".

قالوا: إن لم يكن عيسى ولدًا لله فمن يكن أبوه؟

فقال لهم النبي ﷺ: "أَلَسْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّهُ لا يَكُونُ وَلَدٌ إِلاَّ وَيُشْبِهُ أَبَاهُ؟". قالوا: بلى.

قال: "أَلَسْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّ رَبَّنَا قَيِّمٌ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ يَحْفَظُهُ وَيَرْزُقُهُ؟". قالوا: بلى.

قال: "فَهَلْ يَمْلِكُ عِيسَى مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا؟". قالوا: لا.

قال: "أَلَسْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّ اللهَ لا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ؟" قالوا: بلى.

قال: "فَهَلْ يَعْلَمُ عِيسَى عَنْ ذَلِكَ شَيْئًا إِلاَّ مَا عُلِّمَ؟". قالوا: لا.

قال: "أَلَسْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّ رَبَّنَا صَوَّرَ عِيسَى فِي الرَّحِمِ كَيْفَ يَشَاءُ، وَرَبَّنَا لَيْسَ بِذِي صُورَةٍ وَلَيْسَ لَهُ مِثْلٌ، وَرَبَّنَا لا يَأْكُلُ وَلا يَشْرَبُ؟". قالوا: بلى.

قال: "أَلَسْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّ عِيسَى حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كَمَا تَحْمِلُ الْمَرْأَةُ ثُمَّ وَضَعَتْهُ كَمَا تَضَعُ الْمَرْأَةُ وَلَدَهَا، ثُمَّ غُذِّيَ كَمَا يُغَذَّى الصَّبِيُّ ثُمَّ كَانَ يَطْعَمُ وَيَشْرَبُ وَيُحْدِثُ؟". قالوا: بلى.

قال: "فَكَيْفَ يَكُونُ هَذَا كَمَا زَعَمْتُمْ؟". فسكتوا[١].

---

(١) انظر: محيي السنة، أبو محمد الحسين البغوي: معالم التنزيل في تفسير القرآن، تحقيق: محمد النمر – عثمان جمعة ضميرية – سليمان الحرش، دار طيبة، السعودية، الرابعة، ١٤١٧هـ=١٩٩٧م، ٢/ ٥، وعلاء الدين البغدادي الشهير بالخازن: لباب التأويل في معاني التنزيل، دار الفكر، بيروت، لبنان، ١٣٩٩ هـ=١٩٧٩ م، ١/ ٣١٧، وجلال الدين السيوطي، الدر المنثور، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٣، ٢/ ٥٩٨.

فهذا الحوار كان هدفه ﷺ أن يُبيِّنَ أمرًا من أهمِّ أمور العقيدة، وهو تنزيه الله ﷻ عن أن يكون له وَلَدٌ كما ادعت النصـــارى، الذين يرون أنهم يتفقون مع المســلمين في توحيدهم وعبادتهم لله، فأنكر عليهم النبي ﷺ ذلك، وأخبرهم أنهم لا يمكن أن تكون لهم صـلة بالإسـلام الذي ادعوه لأنفسـهم؛ ما داموا يُصِـرُّون على أن عيسى عليه السلام ابن الله ﷻ.

وإذا كان الحوار يُعتبر الأداة الأولى والمهمَّة في جانب تثبيت العقيدة والدفاع عنها، فإنه في الجانب التربوي والتعليمي لا يقلُّ أهمية عنه، فهو طريقة تربوية تقوم على الإقناع الذي يستلزم بالضـرورة الاسـتيعاب لوجهات النظر المتقابلة، وهذا يعني أنه يمنح المتربِّي أفقًا أوسـع وفكرًا أرحب، كما أنه يجعل كلاً من المربِّي والمتربِّي في تواصـل مستمرٍّ أثناء العملية التربوية، التي تقوم على التعاون والمشـاركة؛ بحيث لا يكون المتربِّي عالة على مربِّيه في كل مراحل العملية التربوية؛ الأمر الذي يجعل منه مجرَّد تابع ومقلِّد لمربِّيه، ليس لديه أدنى نصـيب من الاسـتقلالية في آرائه وأفكاره وقناعاته، وكذلك فإنَّ هذا التواصـل يُسَـهِّل على المربِّي مهامَّ التوجيه واكتشاف المشكلات التي تعترض المتربِّي وتقديم الحلول لها.

ولقد كان رسـول الله ﷺ حريصًـا على نشـر وتفعيل ثقافة الحوار بينه وبين أصـحابه، وليس أدلّ على ذلك من أنه ﷺ عَلَّمهم الحوار كطريقة في تَعَلُّم أســس الدين من إيمان وإســلام وإحســان وفي موقف واحد، وكأنه إيماءٌ بأن الأسـلوب المستخدم في التعليم لا يقلُّ أهمية عن موضوع التعلُّم، فعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: كنا جلوسًـا عند النبي ﷺ فجاء رجل شـديد بياض الثياب، شـديد سـواد شـعر الرأس، لا يُرَى عليه أثر السـفر، ولا يعرفه منَّا أحد، فجلس إلى النبي ﷺ، فأســند ركبته إلى ركبته، ووضـــع يده على فخذيه، ثم قال: يَا مُحَمَّدُ؛ مَا الإِسْلامُ؟

قال: "شَــهَادَةُ أَنْ لا إِلَهَ إِلاَّ اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُــولُهُ، وَإِقَامُ الصَّــلاَةِ، وَإِيتَاءُ الزَّكَاةِ، وَحَجُّ الْبَيْتِ، وَصَوْمُ رَمَضَانَ". قال: صدقت. قال عمر: فعجبنا منه يسأله ويُصَدِّقه.

ثم قال: يا محمد؛ ما الإيمان؟ قال: "أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ وَمَلائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ". قال: صدقت. قال عمر: فعجبنا منه يسأله ويصدقه.

ثم قال: يا محمد؛ ما الإحســان؟ قال: "أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنَّكَ إِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ". قال:

فمتى الساعة؟ قال: "مَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ". قال: فما أمارتها؟ قال: "أَنْ تَلِدَ الأَمَةُ رَبَّتَهَا، وَأَنْ تَرَى الْحُفَاةَ الْعُرَاةَ الْعَالَةَ أَصْحَابَ الشَّاءِ يَتَطَاوَلُونَ فِي الْبُنْيَانِ". ثم قال عمر: فلقيني النبي ﷺ بعد ثلاث، فقال: "أَتَدْرِي مَنِ الرَّجُلُ". قلتُ: الله ورسوله أعلم. قال: "ذَاكَ جِبْرِيلُ، أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ مَعَالِمَ دِينِكُمْ"(1).

ففي تعليق النبي ﷺ على ما دار بينه وبين جبريل عليه السلام لفتة إلى أنه لم يأتِ ليُعَلِّم الصحابة رضوان الله عليهم أسس العقيدة والعبادات فقط؛ بل إنه قصد -أيضًا- تعليمهم الطريقة التي يمكنهم من خلالها معرفة هذه الأشياء وغيرها، وقد كانت هذه الطريقة هي الحوار كما يتَّضح من الحديث.

وقد كان النبي ﷺ كثيرًا ما يستخدم الحوار بهدف ترسيخ مفهوم جديد في أذهان صحابته، أو تصحيح خطأ مترسِّب في أذهانهم، كما في قوله ﷺ: "انْصُرْ أَخَاكَ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا". فقالوا: يا رسول الله هذا ننصره مظلومًا، فكيف ننصره ظالمًا؟ قال: "تَأْخُذُ فَوْقَ يَدَيْهِ"(2).

فعن طريق هذا الحوار صحَّح النبي ﷺ مفهوم نصرة الأخ، الذي كان في الجاهلية منصرفًا إلى الوقوف بجانبه مهما كان موقفه ظالمًا أو مظلومًا؛ وذلك عن طريق الحوار الذي استثار به أذهان الجالسين حوله، حين قال: "انْصُرْ أَخَاكَ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا". وهذا الذي دفعهم إلى أن يتساءلوا عن هذا المنطق، الذي رَسَخ في أذهانهم خطؤه وبطلانه، فقالوا: ننصره مظلومًا فكيف ننصره ظالمًا؟ فجاءت إجابة النبي ﷺ مصححة للمفهوم الذي أدار الرسول ﷺ هذا الحوار من أجل تصحيحه، فقال ﷺ: "تَأْخُذُ فَوْقَ يَدَيْهِ".

وتتعدَّد القيم التربوية التي غرسها النبي ﷺ في نفوس أصحابه، فعن أبي ذرٍّ أن ناسًا من أصحاب النبي ﷺ قالوا للنبي ﷺ: يَا رَسُولَ اللهِ ذَهَبَ أَهْلُ الدُّثُورِ بِالأُجُورِ؛ يُصَلُّون كما نُصَلِّي، ويصومون كما نصوم، ويتصدقون بفضول أموالهم. قال: "أَوَ لَيْسَ قَدْ جَعَلَ اللهُ لَكُمْ مَا تَصَّدَّقُونَ؛ إِنَّ بِكُلِّ تَسْبِيحَةٍ صَدَقَةً، وَكُلِّ تَكْبِيرَةٍ صَدَقَةً، وَكُلِّ تَحْمِيدَةٍ صَدَقَةً، وَكُلِّ تَهْلِيلَةٍ صَدَقَةً، وَأَمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ صَدَقَةٌ، وَنَهْيٌ عَنْ مُنْكَرٍ صَدَقَةٌ، وَفِي بُضْعِ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ"..

---

(1) الترمذي في سننه: كتاب الإيمان، باب وصف جبريل للنبي ﷺ الإيمان والإسلام، (٢٦١٠)، قال الترمذي: حديث حسن صحيح، وابن ماجه، (٦٣)، قال الألباني: صحيح.

(2) البخاري: كتاب المظالم، باب أعن أخاك ظالمًا أو مظلومًا، (٢٣١٢)، عن أنس رضي الله عنه.

قالوا: يا رسول الله؛ أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر؟ قال ﷺ: "أَرَأَيْتُمْ لَوْ وَضَعَهَا فِي حَرَامٍ، أَكَانَ عَلَيْهِ فِيهَا وِزْرٌ؟! فَكَذَلِكَ إِذَا وَضَعَهَا فِي الْحَلالِ كَانَ لَهُ أَجْرًا"(١).

ففي الحوار السابق عَلَّم رسول الله ﷺ أصحابه أن مفهوم الصدقة أوسع مما يظنُّون، فهي تشمل كل أعمال الخير والبر، وبيَّن لسائليه أنهم باستطاعتهم أن يتصدَّقوا حتى لو لم يكن لديهم مال؛ فبدأ بتعداد ما يمكنهم القيام به ولا يتطلب مالاً، حتى وصل بهم إلى أن بيَّن أنه في بعض المباحات التي يستبعدون تمامًا أنها تدخل في باب الصدقات، فقال: "وَفِي بُضْعِ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ". فكان ذلك هو المثير الذي أثار أذهانهم، فجاء ردُّ فعلهم في صورة هذا الاستفهام التعجبي: أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر؟! فجاء الردُّ المقنع من النبي ﷺ على هذا السؤال، فقال ﷺ: "أَرَأَيْتُمْ لَوْ وَضَعَهَا فِي حَرَامٍ، أَكَانَ عَلَيْهِ فِيهَا وِزْرٌ؟! فَكَذَلِكَ إِذَا وَضَعَهَا فِي الْحَلالِ كَانَ لَهُ أَجْرًا". والإقناع الذي يتَّسم به هذا الردُّ ينعكس بدوره على بقية أنواع الصدقات المذكورة في أول الحديث؛ إذ إنَّ شهوة المرء التي يضعها في الحلال هي أبعد ما يجوز للذهن إطلاق اسم صدقة عليه، ومع ذلك فقد وجدت مبررًا مقنعًا من النبي ﷺ، فكيف ببقية الأعمال الواردة في الحديث، وهي في معناها أقرب إلى المعنى المتبادر للفظ الصدقة.

وكان ﷺ يستعمل الحوار كوسيلة من وسائل عصف الذهن لدى الصحابة رضوان الله عليهم؛ بإثارة سؤال ما حول موضوع ما يُضيف فهمًا جديدًا لديهم، كما في الحديث الذي يرويه عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، قال رسول الله ﷺ: "إِنَّ مِنَ الشَّجَرِ شَجَرَةً لا يَسْقُطُ وَرَقُهَا، وَإِنَّهَا مَثَلُ الْمُسْلِمِ، فَحَدِّثُونِي مَا هِيَ؟" فَوَقَعَ النَّاسُ فِي شَجَرِ الْبَوَادِي، قَالَ عَبْدُ اللهِ: وَوَقَعَ فِي نَفْسِي أَنَّهَا النَّخْلَةُ، فَاسْتَحْيَيْتُ، ثُمَّ قَالُوا: حَدِّثْنَا مَا هِيَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: "هِيَ النَّخْلَةُ"(٢).

فالرسول ﷺ أراد من خلال شحذ الأذهان وتطلُّعهم إلى الجواب الصحيح أن يُرَسِّخ في نفوسهم أن المسلم عطاءٌ دائمٌ وربيعٌ مستمرٌّ، وأنه لا يصدر منه إلاَّ الخير النافع، كالنخلة التي لا يسقط ورقها، وفائدتها

(١) مسلم: كتاب الزكاة، باب بيان أن اسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف (١٠٠٦).

(٢) البخاري: كتاب العلم، باب قول المحدث: حدثنا أو أخبرنا أو أنبأنا، (٦١)، ومسلم، كتاب: صفات المنافقين وأحكامهم، باب مثل المؤمن مثل النخلة، (٢٨١١).

موجودة في جميع أجزائها، مستمرَّة في جميع أحوالها، فمن حين تطلع إلى أن تيبس تؤكل أنواعًا، ثم بعد ذلك يُنتفع حتى بالنوى كعلف للدواب، والليف في الحبال، وغير ذلك مما لا يخفى، وكذلك بركة المسلم وفائدته عامَّة في جميع الأحوال، ونفعه مستمرٌّ له ولغيره حتى بعد موته(١).

فقد رأينا ما للحوار من أثر إيجابي في الواقع، وهذا أكبر دليل على أهميته ودوره؛ خاصة فيما يخصُّ العقيدة، فكم من غير مسلم دخل الإسلام عن طريق الحوار! وكم من مبتدعٍ ضالٍّ رجع عن بدعته بسبب الحوار! وكم من عاصٍ تاب إلى ربِّه ورجع إلى عقله بعد محاورته! كالحوار الذي كان سببًا في إسلام عمر بن الخطاب، والحوار الذي كان سببًا في إسلام عمير بن وهب(٢)، وحوار عبد الله بن العباس مع الخوارج، الذي كان سببًا في رجوع ألفين منهم عن بدعتهم، وكذلك الحوارات التي كانت سببًا في كبت الفتن وتوحيد الكلمة وإنهاء النزاع والخلاف كالحوار بين المهاجرين والأنصار في سقيفة بني ساعدة، والذي انتهى بمبايعة أبي بكر الصديق رضي الله عنه.. إلى غير ذلك من الحوارات التي هي أكثر من أن تُحْصَى، فإن دلَّ ذلك على شيء فإنما يدلُّ على أهمية الحوار وضرورته، والحاجة إلى طرح هذا الأسلوب لصناعة الرجال كما كان يفعل النبي ﷺ مع أصحابه(٣).

(١) انظر: ابن حجر العسقلاني: فتح الباري شرح صحيح البخاري، ١/ ١٤٥، ١٤٦.

(٢)هو عمير بن وهب الجمحي القرشي، شهد بدرًا مع المشركين، وحاول قتل النبي ﷺ إلا أنه أسلم وحسُن إسلامه، وعاش إلى خلافة عمر، الاستيعاب ٣/ ٢٩٤، أسد الغابة ٣/ ٧٩٧، الإصابة (٦٠٥٨).

(٣) انظر: يحيى بن محمد حسن بن أحمد زمزمي: الحوار آدابه وضوابطه في ضوء الكتاب والسنة، ص٣٤، ٣٥.

المبحث الرابع: أسلوب التربية بالعبادة

العبادة في المنهج التربوي الإسلامي تشمل كل مجالات الحياة، وكل خطوات الإنسان؛ مصداقًا لقوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾(١) ، وهي كذلك وسيلة من أهمِّ وسائل صناعة الرجال؛ لأنها تغرس في النفس الإنسانية كل القيم التربوية، وهي كذلك علامة خاصة بين العبد وربِّه تُثير القلوب، وتهدي العقول، وتنعكس على الجوارح في صورة كل عمل يؤدَّى من أجل رضا الله.ﷻ

والعبادة كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية عندما سُئِلَ عن ماهيتها: "هي اسم جامع لكل ما يُحِبُّه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة؛ فالصلاة والزكاة، والصيام والحج، وصدق الحديث، وأداء الأمانة، وبرُّ الوالدين، وصلة الأرحام، والوفاء بالعهود، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والجهاد للكفار والمنافقين، والإحسان للجار واليتيم والمسكين وابن السبيل والمملوك من الآدميين والبهائم، والدعاء، والذكر والقراءة.. وأمثال ذلك من العبادة، وكذلك حُبُّ الله ورسوله، وخشية الله والإنابة إليه، وإخلاص الدين له، والصبر لحكمه، والشكر لنعمه، والرضا بقضائه، والتوكُّل عليه، والرجاء لرحمته، والخوف من عذابه.. وأمثال ذلك هي من العبادة لله؛ وذلك أن العبادة لله هي الغاية المحبوبة له والمرضية له، التي خَلق الخلق لها، كما قال الله تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾(٢)، وبها أرسل جميع الرسل"(٣).

ولأهمية العبادة في الإسلام نجد أن النبي ﷺ اعتبرها من أهمِّ وسائل التربية الخلقية، وغرس الفضائل والقيم والمثل العليا، وترسيخ وتهذيب السلوك، وإصلاح أحوال النفس البشرية وتزكيتها، وتقوية مناعتها ضد أسباب الانحلال والانحراف والفساد؛ فالصلاة: طهارة روحية ونفسية وجسدية وخلقية، فهي تُصَفِّي القلوب من الشكِّ والضلال والأوهام وأفكار السوء، وتُزَكِّي الأنفس وتقيها من الفحشاء والمنكر، وتطهر الأبدان من

---

(١) الأنعام: ١٦٢.

(٢) (الذاريات: ٥٦).

(٣) ابن تيمية: العبودية، تحقيق: محمد زهير الشاويش، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة السابعة، ١٤٢٦هـ=٢٠٠٥م، ص٤٣، ٤٤.

القذارة والأدران[١]؛ مصداقًا لقول الله تعالى:

﴿ ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴾ [٢]؛ ولذلك جعلها الرسول ﷺ المؤشِّر والدليل الأول على إيمان المسلم وقوَّة علاقته بالخالق تبارك وتعالى، فقال ﷺ: "إِنَّ بَيْنَ الرَّجُلِ وَبَيْنَ الشِّرْكِ وَالْكُفْرِ تَرْكَ الصَّلاَةِ"[٣].

والصلاة لها أثر قوي وفعَّال في شفافية الروح ونقائها من المعاصي والذنوب؛ لذلك "جعلها الله كتابًا موقوتًا؛ فقد أمر ﷻ المؤمنين بإقامتها حين يُمسون وحين يُصبحون، وعشيًّا وحين يظهرون، فكُرِّرت خمس مرَّات لتكون حمامًا روحيًّا للمسلم يتطهَّر بها من غفلات قلبه، وأدران خطاياه.

كما أن الصلاة بمثابة تربية روحية للفرد، تمسح على علل النفوس فتبرأ بفضل الله تعالى، وفي هذا يروي لنا عبد الله بن محمد ابن الحنفية[٤] فيقول: انطلقتُ أنا وأبي إلى صهر لنا من الأنصار نعوده، فحضرت الصلاة، فقال لبعض أهله: يا جارية؛ ائتوني بوضوء لعلِّي أصلي فأستريح. قال: فأنكرنا ذلك عليه، فقال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: "قُمْ يَا بِلاَلُ، أَقِمْ فَأَرِحْنَا بِالصَّلاَةِ"[٥].

كما أن للصلاة دورًا كبيرًا في تنمية الجانب العقلي والذهني، وهذا ما تحقق في مجتمع الصحابة بالفعل؛ لأنهم فهموا جيدًا كلمات القرآن، التي كان النبي ﷺ يتلوها عليهم أثناء الصلاة، فتدبَّروا آيات النعيم فتاقت

---

(١) عبد الحميد الصيد الزنتاني: أسس التربية الإسلامية في السنة النبوية، ص٧٥٥، ٧٥٦.

(٢) (العنكبوت: ٤٥).

(٣) مسلم: كتاب الإيمان، باب بيان إطلاق اسم الكفر، (٨٢)، عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه.

(٤) هو عبد الله بن محمد بن على بن أبى طالب الهاشمي، أبو هاشم، ثقة في روايته للحديث، وكان عالمًا بكثير من المذاهب والمقالات، أحد زعماء العلويين في العصر المرواني، كان يبث الدعاة سرًّا في الناس، يُنَفِّرهم من بني أمية، ويستميلهم إلى بني هاشم، وهو يعد من واضعي أسس الدولة العباسية، توفي سنة ٩٩ هـ بالشام.

(٥) أبو داود كتاب الأدب، باب في صلاة العتمة، (٤٩٨٦)، ، وأحمد في مسنده (٢٣٢٠٢)، وقال الأرناءوط: رجاله ثقات لكن اختلف فيه على سالم بن أبي الجعد. وصححه الألباني

أنفسهم إليه، وتدبَّروا آيات العذاب فاستعاذوا منه، وكذلك ربَّت الصلاة المؤمنين اجتماعيًّا، فالكل يقف في المسجد صفًّا واحدًا لا فرق بين عربي ولا عجمي إلاَّ بالتقوى والعمل الصالح، وإذا أُدِّيت الصلاة بخشوع تامٍّ كما أمر النبي ﷺ، فهي بذلك تُقَوِّي الضمير والأخلاق، وتجعل النفس دائمًا توَّاقة إلى الخير أينما يكون، وبهذا يصير المجتمع صالحًا ونقيًّا، هذا فضلاً عن كون الصلاة رياضة بدنية تنشط الروح والبدن.

أمَّا الزكاة فهي طهارة لمال الإنسان وعمله، وتربية للنفس ونقاءً لها من رذائل الأخلاق كالشح والبخل والتقتير، وهي كذلك تُكسب النفس فضائل الأخلاق؛ كالإحسان والبرِّ، والصدقة والكرم والسخاء، وعون الفقراء والمساكين، ومساعدة المحتاجين والمعوزين، كما أنها تُقَوِّي رُوح التكافل والتعاون الاجتماعي، وتُذيب الفوارق الحادَّة بين فئات المجتمع، فتُزيل بطر الأغنياء، وحقد الفقراء، وتُحِلُّ محلَّهما التعاطف والتراحم والعدل(١)؛ ولذلك عدَّ الله ﷻ الزكاة من صفات المتَّقِينَ في مستهلِّ سورة البقرة(٢)، وقال النبي ﷺ: "مَنْ تَصَدَّقَ بِعَدْلِ تَمْرَةٍ مِنْ كَسْبٍ طَيِّبٍ وَلا يَقْبَلُ اللهُ إِلاَّ الطَّيِّبَ، وَإِنَّ اللهَ يَتَقَبَّلُهَا بِيَمِينِهِ، ثُمَّ يُرَبِّيهَا لِصَاحِبِهِ، كَمَا يُرَبِّي أَحَدُكُمْ فَلُوَّهُ، حَتَّى تَكُونَ مِثْلَ الْجَبَلِ"(٣).

ونظرًا لمنافع الزكاة على الفرد والمجتمع فقد حذَّر النبي ﷺ صحابته من عواقب مانعها، فعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "مَنْ آتَاهُ اللهُ مَالاً فَلَمْ يُؤَدِّ زَكَاتَهُ، مُثِّلَ لَهُ مَالُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ شُجَاعًا أَقْرَعَ لَهُ زَبِيبَتَانِ، يُطَوَّقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، ثُمَّ يَأْخُذُ بِلِهْزِمَتَيْهِ -يَعْنِي: بِشِدْقَيْهِ- ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا مَالُكَ أَنَا كَنْزُكَ". ثُمَّ تلا: ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾(٤)" الآيَةَ(٥).

ولذلك وعى الصحابة ﷺ كلام ربهم ونبيهم، فكان كل صحابي يُسارع إلى إخراج زكاة ماله، فضلاً عن

(١) عبد الحميد الصيد الزنتاني: أسس التربية الإسلامية في السنة النبوية، ص٧٥٧، بتصرف.

(٢) (البقرة: ٣).

(٣) البخاري: كتاب الزكاة، باب لا يقبل الله صدقة من غلول... (١٣٤٤).

(٤) (آل عمران: ١٨٠).

(٥) البخاري: كتاب الزكاة، باب إثم مانع الزكاة، (١٣٣٨).

كفالة الفقراء ومساعدة المحتاجين، فعن عمر بن الخطاب ﷺ قال: أَمَرَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ يَوْمًا أَنْ نَتَصَدَّقَ، فَوَافَقَ ذَلِكَ مَالاً عِنْدِي، فَقُلْتُ: الْيَوْمَ أَسْبِقُ أَبَا بَكْرٍ إِنْ سَبَقْتُهُ يَوْمًا فَجِئْتُ بِنِصْفِ مَالِي، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "مَا أَبْقَيْتَ لأَهْلِكَ؟". قُلْتُ: مِثْلَهُ. قَالَ: وَأَتَى أَبُو بَكْرٍ ﷺ بِكُلِّ مَا عِنْدَهُ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "مَا أَبْقَيْتَ لأَهْلِكَ؟". قَالَ: أَبْقَيْتُ لَهُمُ اللهَ وَرَسُولَهُ. قُلْتُ: لاَ أُسَابِقُكَ إِلَى شَيْءٍ أَبَدًا"(١).

أمَّا عبادة الصوم فهي غذاء للروح، وطهارة للأبدان، وتهذيبًا للنفوس، ونقاءً للقلوب، واستقامة للأخلاق؛ ولذلك فرض الإسلام الصوم وسيلة لبلوغ مرتبة التقوى(٢)، فالغرض الأساسي من هذا الصوم هو تحقيق التقوى في نفس المؤمن، وجزاء ذلك الجنة، فقد قال رسول الله ﷺ: "مَنْ صَامَ رَمَضَانَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ"(٣).

وقد وضع رسول الله ﷺ لعبادة الصوم ضوابط وأحكام حتى تؤتي ثمارها، فقال ﷺ: "مَنْ لَمْ يَدَعْ قَوْلَ الزُّورِ وَالْعَمَلَ بِهِ فَلَيْسَ للهِ حَاجَةٌ فِي أَنْ يَدَعَ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ"(٤). فليس المقصود من الصوم هو امتناع الإنسان عن شهوتي البطن والفرج فحسب -كما فهم بعض الناس- ولكن المقصود هو تربية المسلم على مكارم الأخلاق؛ فلا يظلم أحدًا، ولا يأكل أموال الناس بالباطل، ولا يعقُّ والديه، ولا يقطع رحمًا، ولا يكذب.. وما إلى ذلك من اقتراف سيِّئات وفعل منكرات، وإن فعل ذلك فإن صومه مردود عليه، أمَّا الصوم الذي يُريده الله من المسلم؛ فهو بمثابة حملة تطهير يصبر عليها المسلم شهرًا، مع المقويات التي وصفها الله له من ذِكْر، وقراءة قرآن، وقيام ليلٍ، حتى يحتمل عملية التطهير إلى النهاية(٥).

وعبادة الحجِّ هي تلك الرحلة الفريدة في عالم الأسفار والرحلات، والتي ينتقل فيها المسلم ببدنه وقلبه إلى

(١) أبو داود في سننه: كتاب الزكاة، باب الرخصة في ذلك، (١٦٧٨)، قال الألباني: حسن.

(٢) محمد حسين هيكل: حياة محمد، المكتبة العصرية- بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠٦هـ، ص٥٢٦.

(٣) البخاري: كتاب الصيام، باب صوم رمضان احتسابًا من الإيمان، (٣٨).

(٤) البخاري: كتاب الصوم، باب من لم يدع قول الزور والعمل به في الصوم، (١٨٠٤).

(٥) محمد محمود مصطفى عمير: العبادات وأثرها في التربية والتهذيب، مكتب التراث الإسلامي القاهرة، ص٩٧، بتصرف.

البلد الأمين، الذي أقسم الله به في القرآن، للوقوف بعرفات، والطواف ببيت الله الحرام، الذي جعله الإسلام رمزًا لتوحيد الله، ووحدة المؤمنين به، فُرِضَ على المسلم أن يستقبله كل يوم في صلواته.

وإن كانت هذه الفريضة لم تجب على غير القادرين، فإنها فريضة واجبة على كل قادر مستطيع؛ "فهي أكثر العبادات الإسلامية اشتمالاً على الأمور التعبدية -التي لا تُعرف حكمتها معرفة تفصيلية على وجه التأكيد- ولكن لعلَّه -أيضًا- أوضح هذه العبادات أثرًا في حياة المسلمين أفرادًا وشعوبًا.

كما وصي بها رسول الله ﷺ أُمَّته، فعن أبي هريرة ؓ قال: خطبنا رسول الله ﷺ فقال: "أَيُّهَا النَّاسُ؛ قَدْ فَرَضَ اللهُ عَلَيْكُمُ الْحَجَّ فَحُجُّوا.."[1]. كما رغَّب النبي ﷺ الأُمَّة في تأديتها لما لها من ثواب عظيم عند الله ﷻ، بقوله: "مَنْ أَتَى هَذَا الْبَيْتَ فَلَمْ يَرْفُثْ وَلَمْ يَفْسُقْ رَجَعَ كَمَا وَلَدَتْهُ أُمُّهُ"[2]، وعندما استجاب المسلمون الأُوَل ولَبَّوْا نداء الله ورسوله في أداء فريضة الحج، كان لذلك أثره الكبير في السمو بأخلاقهم، وعلوِّ منزلة مجتمعهم بتقوية روابط الأخوة بينهم، فهؤلاء بالفعل قدَّروا المعنى الحقيقي والمغزى من أداء هذه الفريضة العظيمة.

فالحجُّ فريضة تغرس في النفس البشرية تقوى الله ﷻ، والتواضع وعدم التكلُّف، وتُقَوِّي لدى المسلم الإحساس بالمساواة مع الآخرين؛ فالجميع يرتدي ملابس الإحرام، التي لا تتعدَّى في ذاتها عن بضع أمتار، والجميع متساوون أمام خالقهم ﷻ، لا فرق بين أبيض وأسود، ولا بين عربي وعجمي، إلاَّ بالتقوى والعمل الصالح، وعندما يعود كل فرد إلى موطنه يعود نقيًّا مستجيبًا لأوامر ربِّه وأوامر نبيِّه، ولِمَا لا وقد نهل من مدرسة الحجِّ، التي تملأ الفؤاد إيمانًا ورضًا بالله الواحد القهار.

هذه بعض الآثار التربوية للعبادة في الإسلام، والتي تخلق شابًا مسلمًا متوازنًا، قويَّ الإرادة، صابرًا على المشاق، ساكنًا وقورًا مطمئنًّا رحيمًا عابدًا.. قادرًا على بناء أُمَّته، وقيادة البشرية إلى السعادة والنقاء والصلاح.

(١) مسلم: كتاب الحج، باب فرض الحج مرة في اليوم، (١٣٣٧).

(٢) مسلم: كتاب الحج، باب في فضل الحج العمرة ويوم عرفة، (١٣٥٠).

المبحث الخامس: التربية بالقصة

لا تزال القصَّة في كل زمان ومكان على رأس الأساليب التي يدخل منها الصانعُ المربِّي إلى قلوب الناس وعقولهم؛ لكي يسلكوا الطريق القويم، ويعتنقوا الفضائل، ويجتنبوا الرذائل، ويُسَلِّموا وجوههم لله الواحد القهار.

فالقصة تمتاز بأنها تصوير حيٌّ لجميع نواحي الحياة، فتعرض للأشخاص وحركاتهم وأخلاقهم، وأفكارهم واتجاهاتهم وتصرفاتهم، فإذا رأيتَ هذه التصرفات والأعمال عرفت ما يستكنُّ في النفوس من طباع، وما يهجس فيها من خواطر، وانشرح صدرك لأهل الخير منه، وضقت ذرعًا بذوي النفوس المظلمة؛ حتى لكأنك تراهم رأي العين، وتسمع منهم سمع الأذن، وتعاشرهم وتحيا بينهم، وكذلك تمتاز بأن النفس تميل إليها، وهي بهاتين الميزتين من خير الوسائل التي يلجأ إليها الصانع المربِّي لترسيخ تعاليمه، والوصول بها إلى أعمال القلوب، فهي بالميزة الأولى تعرض هذه التعاليم في صورة عملية حية تُحَرِّك الوجدان، وترفع نبض المشاعر، وهي بالميزة الثانية ميزة التنبه والتقبُّل تجعل النفوس أوعية مفتوحة يصبُّ فيها الداعية ما يشاء فيبلغ القرار(١).

والمتدبِّر للقرآن الكريم يرى جانبًا كبيرًا من آياته وسوره –ما يمثِّل ثلثي القرآن– قد اشتمل على قصص الأنبياء عليهم السلام، وعلى قصص غيرهم من الأخيار والأشرار، خاصة في السور المكية، التي كان نزولها قبل الهجرة؛ لأنها في الأغلب كانت تهتمُّ بإقامة الدليل على وحدانية الله تعالى، وعلى صدق الرسول ﷺ فيما يُبَلِّغه عن ربِّه، وعلى أن هذا القرآن من عند الله تعالى، وعلى أن البعث وما يترتب عليه من ثواب أو عقاب حقٌّ وصدقٌ؛ ولذلك فقد أمر الله تعالى نبيه الكريم أن يتأمَّل ويتدبَّر القصص القرآني؛ لأن فيه العبرة والموعظة، فتجارِب الأمم السابقة ما هي إلاَّ زاد يجب أن تستفيد منه الأمم اللاحقة، فقال تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ (٢)، فالقرآن قد استخدم القصة لترسيخ كل المعاني التربوية في نفس المسلم، والأمثلة على ذلك كثيرة.

---

(١) البهي الخولي: تذكرة الدعاة، دار التراث، القاهرة، الطبعة الثامنة، ١٤٠٨هـ=١٩٨٧م، ص٤٤، ٤٥.

(٢) (يوسف: ١١١).

والنبي ﷺ كان يعلم قوَّة تأثير الأسلوب القصصي وسحره في النفوس، فكان دومًا ما يقصُّ لأصحابه قصص السابقين بهدف غرس قيمة مُعَيَّنة في نفوسهم؛ سواء كانت إيمانية أو أخلاقية.. وغير ذلك من القيم التي تُهَذِّب النفوس، وتشرح الصدور، وتُعِينُ على الخير وتُبْعِد عن الشرِّ، ومن القصص النبوي ما رواه عبدالله بن عمر ﵄ من حديث رسول الله ﷺ قال: "انْطَلَقَ ثَلاثَةُ رَهْطٍ مِمَّنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، حَتَّى أَوَوُا الْمَبِيتَ إِلَى غَارٍ فَدَخَلُوهُ، فَانْحَدَرَتْ صَخْرَةٌ مِنَ الْجَبَلِ، فَسَدَّتْ عَلَيْهِمُ الْغَارَ، فَقَالُوا: إِنَّهُ لا يُنْجِيكُمْ مِنْ هَذِهِ الصَّخْرَةِ إِلاَّ أَنْ تَدْعُوا اللهَ بِصَالِحِ أَعْمَالِكُمْ. فَقَالَ رَجُلٌ مِنْهُمْ: اللَّهُمَّ كَانَ لِي أَبَوَانِ شَيْخَانِ كَبِيرَانِ، وَكُنْتُ لا أَغْبِقُ قَبْلَهُمَا أَهْلاً وَلا مَالاً، فَنَأَى بِي فِي طَلَبِ شَيْءٍ يَوْمًا، فَلَمْ أُرِحْ عَلَيْهِمَا حَتَّى نَامَا، فَحَلَبْتُ لَهُمَا غَبُوقَهُمَا، فَوَجَدْتُهُمَا نَائِمَيْنِ، وَكَرِهْتُ أَنْ أَغْبِقَ قَبْلَهُمَا أَهْلاً أَوْ مَالاً، فَلَبِثْتُ وَالْقَدَحُ عَلَى يَدَيَّ أَنْتَظِرُ اسْتِيقَاظَهُمَا، حَتَّى بَرَقَ الْفَجْرُ، فَاسْتَيْقَظَا فَشَرِبَا غَبُوقَهُمَا، اللَّهُمَّ؛ إِنْ كُنْتُ فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ فَفَرِّجْ عَنَّا مَا نَحْنُ فِيهِ مِنْ هَذِهِ الصَّخْرَةِ. فَانْفَرَجَتْ شَيْئًا لا يَسْتَطِيعُونَ الْخُرُوجَ.

قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: وَقَالَ الآخَرُ: اللَّهُمَّ؛ كَانَتْ لِي بِنْتُ عَمٍّ، كَانَتْ أَحَبَّ النَّاسِ إِلَيَّ، فَأَرَدْتُهَا عَنْ نَفْسِهَا، فَامْتَنَعَتْ مِنِّي، حَتَّى أَلَمَّتْ بِهَا سَنَةٌ مِنَ السِّنِينَ، فَجَاءَتْنِي فَأَعْطَيْتُهَا عِشْرِينَ وَمِائَةَ دِينَارٍ عَلَى أَنْ تُخَلِّيَ بَيْنِي وَبَيْنَ نَفْسِهَا فَفَعَلَتْ، حَتَّى إِذَا قَدَرْتُ عَلَيْهَا قَالَتْ: لا أُحِلُّ لَكَ أَنْ تَفُضَّ الْخَاتَمَ إِلاَّ بِحَقِّهِ. فَتَحَرَّجْتُ مِنَ الْوُقُوعِ عَلَيْهَا، فَانْصَرَفْتُ عَنْهَا، وَهِيَ أَحَبُّ النَّاسِ إِلَيَّ، وَتَرَكْتُ الذَّهَبَ الَّذِي أَعْطَيْتُهَا، اللَّهُمَّ؛ إِنْ كُنْتُ فَعَلْتُ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ فَافْرُجْ عَنَّا مَا نَحْنُ. فِيهِ فَانْفَرَجَتِ الصَّخْرَةُ، غَيْرَ أَنَّهُمْ لا يَسْتَطِيعُونَ الْخُرُوجَ مِنْهَا.

قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: وَقَالَ الثَّالِثُ: اللَّهُمَّ؛ إِنِّي اسْتَأْجَرْتُ أُجَرَاءَ فَأَعْطَيْتُهُمْ أَجْرَهُمْ غَيْرَ رَجُلٍ وَاحِدٍ، تَرَكَ الَّذِي لَهُ وَذَهَبَ، فَثَمَّرْتُ أَجْرَهُ، حَتَّى كَثُرَتْ مِنْهُ الأَمْوَالُ، فَجَاءَنِي بَعْدَ حِينٍ، فَقَالَ: يَا عَبْدَ اللهِ؛ أَدِّ إِلَيَّ أَجْرِي. فَقُلْتُ لَهُ: كُلُّ مَا تَرَى مِنْ أَجْرِكَ مِنَ الإِبِلِ وَالْبَقَرِ وَالْغَنَمِ وَالرَّقِيقِ. فَقَالَ: يَا عَبْدَ اللهِ؛ لا تَسْتَهْزِئُ بِي. فَقُلْتُ: إِنِّي لا أَسْتَهْزِئُ بِكَ. فَأَخَذَهُ كُلَّهُ فَاسْتَاقَهُ، فَلَمْ يَتْرُكْ مِنْهُ شَيْئًا، اللَّهُمَّ؛ فَإِنْ كُنْتُ فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ فَافْرُجْ عَنَّا مَا نَحْنُ. فِيهِ فَانْفَرَجَتِ الصَّخْرَةُ فَخَرَجُوا يَمْشُونَ"(١).

---

(١) البخاري: كتاب الإجارة، باب من استأجر أجيرا فترك أجره فعمل فيه المستأجر فزاد أو من عمل في مال غيره فاستفضل (٢١٥٢).

فهذه القصة النبوية تُرَسِّخ في قلب المسلم ضرورة التكاملية بين أفراد المجتمع المسلم، كما يُرَسِّخ بها استحباب الدعاء في الكرب والتقرُّب إلى الله تعالى بذكر صالح العمل واستنجاز وعده بسؤاله، كما أنه يُعَمِّق ويغرس في نفســه مجموعة من القيم والفضــائل، التي يدعو لها الإســلام دومًا؛ كفضــل الإخلاص في العمل والحرص عليه بما رأى من ثمرته العاجلة، وفضـلِ أداء الأمانة وإثبات الكرامة للصـالحين، والعفة والانكفاف عن الحرام مع القدرة، وأن ترك المعصــية يمحو مقدِّمات طلبها، وأن التوبة تَجُبُّ ما قبلها، ويُوجِد لدى الفرد المسلم الرغبة الكبيرة في القيام بهذه الأعمال كبرِّ الوالدين(١).

ومن القصص التي ساقها النبي ﷺ قوله: "بَيْنَا رَجُلٌ يَمْشِي فَاشْتَدَّ عَلَيْهِ الْعَطَشُ، فَنَزَلَ بِئْرًا فَشَرِبَ مِنْهَا، ثُمَّ خَرَجَ، فَإِذَا هُوَ بِكَلْبٍ يَلْهَثُ، يَأْكُلُ الثَّرَى مِنَ الْعَطَشِ، فَقَالَ: لَقَدْ بَلَغَ هَذَا مِثْلُ الَّذِي بَلَغَ بِي. فَمَلأَ خُفَّهُ، ثُمَّ أَمْسَكَهُ بِفِيهِ، ثُمَّ رَقِيَ، فَسَقَى الْكَلْبَ، فَشَكَرَ اللهُ لَهُ فَغَفَرَ لَهُ". قالوا: يا رسول الله؛ وإنَّ لنا في البهائم أجرًا؟ قال: "فِي كُلِّ كَبِدٍ رَطْبَةٍ أَجْرٌ"(٢). ففي هذا الموقف نجد الصحابة رضوان الله عليهم تأثَّرُوا بالقصة التي ساقها النبي ﷺ، وتفاعلوا معها؛ مما دفعهم لأن يتساءلوا في استغراب عن الأجر الذي يناله مَنْ يرحم الحيوان ويُحْسن إليه، وإذا كان هذا أجر مَنْ أحسن إلى حيوان؛ فما جزاء مَنْ يُحْسن إلى والديه، أو أبنائه، أو جيرانه، أو ذوي رحمه؟! لا شكَّ أن ثواب ذلك لأعظم أجرًا.

وهذه القصة تحثُّ الإنسان المسلم على الرحمة والشفقة تجاه الآخرين، وتُنَمِّي شعور الإحساس إزاء معاناتهم ومصاعبهم، التي يتعرَّضون لها في هذه الحياة الدنيا، كما شعر هذا الرجل بمعاناة الكلب من العطش، وأيضًــا تحثُّ على عدم احتقار أي عمل مهما كان صــغيرًا، أو يُعتقد أن ثوابه ليس بمجزٍ، فإن هذا ضــربٌ من التكاسل والتغافل عن قليل الأعمال، التي من الممكن أن تكون كبيرة الأجر عند الله(٣).

ومن روائع القصص النبوي -أيضًا- ما رواه أبو هريرة ﵁ عن رسول الله ﷺ أنه قال: "كَانَ رَجُلٌ فِي بَنِي

---

(١) ابن حجر العسقلاني: فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ٦/ ٥٠٩، ٥١٠، بتصرف.

(٢) البخاري كتاب السقاة باب فضل سقي الماء ح (٢٢٣٤) من حديث أبي هريرة ﵁.

(٣) انظر: زياد محمود العاني: أساليب الدعوة والتربية في السنة النبوية، دار السلام- دمشق، الطبعة الأولى، ١٤٢٨هـ= ٢٠٠٧م، ص٤١٨.

إِسْـرَائِيلَ يُقَالُ لَهُ: جُرَيْجٌ. يُصَـلِّي، فَجَاءَتْهُ أُمُّهُ فَدَعَتْهُ فَأَبَى أَنْ يُجِيبَهَا، فَقَالَ: أُجِيبُهَا أَوْ أُصَـلِّي؟ ثُمَّ أَتَتْهُ فَقَالَتْ: اللَّهُمَّ؛ لا تُمِتْهُ حَتَّى تُرِيَهُ وُجُوهَ الْمُومِسَاتِ. وَكَانَ جُرَيْجٌ فِي صَوْمَعَتِهِ، فَقَالَتِ امْرَأَةٌ: لأَفْتِنَنَّ جُرَيْجًا. فَتَعَرَّضَتْ لَهُ فَكَلَّمَتْهُ فَأَبَى، فَأَتَتْ رَاعِيًا فَأَمْكَنَتْهُ مِنْ نَفْسِهَا، فَوَلَدَتْ غُلامًا، فَقَالَتْ: هُوَ مِنْ جُرَيْجٍ. فَأَتَوْهُ وَكَسَرُوا صَوْمَعَتَهُ، فَأَنْزَلُوهُ وَسَبُّوهُ، فَتَوَضَّأَ وَصَلَّى، ثُمَّ أَتَى الْغُلامَ، فَقَالَ: مَنْ أَبُوكَ يَا غُلامُ؟ قَالَ: الرَّاعِي. قَالُوا: نَبْنِي صَوْمَعَتَكَ مِنْ ذَهَبٍ. قَالَ: لا إِلاَّ مِنْ طِينٍ"(١).

فهذا الحديث يغرس في نفس المسـلم أن صـاحب الصـدق مع الله لا تضـرُّه الفتن، ويُبَيِّن أن قوَّة يقين جريج المذكور وصحَّة رجائه سبب في نجاته من تلك الفتنة التي ألمَّت به؛ لأنه استنطق المولود مع كون العادة أنه لا ينطق، ولولا صحة رجائه بنطقه ما استنطقه، فالله يجعل لأوليائه عند ابتلائهم مخارج(٢).

هذا هو الأسلوب القصصي الذي يُعَدُّ من أكبر وأكثر الأساليب فعالية في صناعة الرجال، وتنمية معالم الإيمان والأخلاق في المجتمع المسلم، وقد استخدمها الرسول ﷺ لترسيخ كافَّة المعاني التربوية، وتعميقها في نفوس الصـحابة، فمهَّدت له الطريق، وسـهَّلت له صـناعة رجال يقودون الأُمَّة ويصـنعون المسـتحيل، وما أحوجنا إلى هذا الأسلوب في عصرنا الحاضر!

---

(١) البخاري: كتاب المظالم، باب إذا هدم حائطا فليبن مثله، (٢٣٥٠)، عن أبي هريرة ﷺ، ومسلم، كتاب: البر والصلة والآداب، باب تقديم بر الوالدين على التطوع بالصلاة وغيرها، (٢٥٥٠).

(٢) انظر: ابن حجر العسقلاني: فتح الباري شرح صحيح البخاري، ٦/ ٤٨٣.

المبحث السادس: التربية بالترغيب والترهيب

الإنسان مفطور على الإحساس باللذَّة والألم، وهو بذلك ميَّال إلى كل ما يُحَقِّق له اللذَّة، وعَزُوفٌ عن كل ما يُسبِّب له الألم، ولهذا العامل تأثير كبير في تربية الإنسان وتكوينه الخلقي، وتوجيهه السلوكي؛ لأنه يجذبه إلى السبل المحمودة، التي تنتهي به إلى اللذائذ المعنوية أو الحسية، ويُجَنِّبه السبل المذمومة التي تُلحق به الآلام المعنوية والحسية، وقد أَكَّدت السُّنَّة النبوية المطهرة أهمية هذا العامل في التربية الأخلاقية والسلوكية؛ بما تضمنته من ترغيب في المحمودات وترهيب في المذمومات، ووعد بالنعيم المقيم في الجنة، ووعيد بالعذاب الأليم في جهنم[1].

والمتأمِّل في القرآن الكريم يجد أنه قد اتخذ من الترغيب والترهيب سبيلاً لتحقيق مبادئه، والوصول إلى أهدافه؛ ولذلك فهو يحوي صورًا شتى لهذا الأسلوب؛ كي يتماشي مع طبيعة النفس البشرية، التي تحتاج دائمًا وأبدًا إلى عنصري الترغيب والترهيب؛ الترغيب في الخير، والحثُّ عليه وبيان أجر فاعله وجزائه في الدنيا والآخرة، والترهيب من الشرِّ، وبيان ما يترتَّب عليه من العاقبة السيئة في الدنيا والآخرة؛ ولذلك جاءت رسالات الأنبياء والمرسلين جميعهم متضمِّنَة هذا الهدف الأساسي والعظيم[2]، قال الله تعالى: ﴿وَمَا نُرۡسِلُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَۖ فَمَنۡ ءَامَنَ وَأَصۡلَحَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٤٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلۡعَذَابُ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ﴾ [3]، فعلى المربِّي أن "يُثير فيمن يُرَبِّيه كوامن الخير والوجدان، ويُبعده عن نوازع الشرِّ والكفران، حتى يختار السلوك القويم المؤدِّي إلى العواقب السليمة، ويتجنَّب كل ما يُؤَدِّي إلى العواقب الوخيمة"[4].

وكان النبي ﷺ خير مربٍّ استخدم هذه الوسيلة التربوية، وأعطاها مساحة كبيرة من حيِّز الوسائل التربوية

---

(١) عبد الحميد الصيد الزنتاني: أسس التربية الإسلامية في السنة النبوية، ص٦٤٦.

(٢) محمد السيد يوسف: منهج القرآن الكريم في إصلاح المجتمع، ص٤٤٧.

(٣) (الأنعام: ٤٨، ٤٩).

(٤) عبد الرحمن النحلاوي: التربية بالترغيب والترهيب، دار الفكر، دمشق، الطبعة الثانية، ١٤٢٩هـ = ٢٠٠٨م، ص١٠.

المختلفة، التي استخدمها في تربية المجتمع المسلم؛ نظرًا لتأثيرها العميق في النفوس، وتقويمها للسلوك، ومن أجل ذلك استخدمها النبي ﷺ بخطَّيْها المتقابلين الترغيب والترهيب.

والترغيب كان أول شــيء بدأ به النبي ﷺ قبل الترهيب؛ لأنه يُؤَدِّي إلى اشــتياق النفس فيما عند الله ﷻ، والترفُّع عن الملذَّات والشهوات الدنيوية، فتَسْمُوا بذلك الرُوحُ وتُؤَهَّل لتلقِّي المنهج الربَّاني؛ ولدوره التربوي استخدمه النبي ﷺ كإحدى أهم الوسائل التربوية مع المجتمع الإسلامي الجديد، وكان ذلك في جوانب كثيرة شــملت غالب أمور الدين، وقد اســتخدم النبي ﷺ هذا الأســلوب بصــوره المختلفة، واعتمد هذه الوســيلة التربوية في وصــفه للجنة وأهلها؛ حتى يُرَغِّبَ بذلك أصــحابه الكرام وأُمَّته جميعًا في العمل لأجلها، واتخاذ الدنيا معبرًا لدار القرار، وقد جاءت أحاديث النبي ﷺ متنوِّعة في هذا الباب لتزيد من الشوق والرغبة في تحصيل الخير للفوز بالجنة، فتعلوا بذلك الهمم، وتُنصــب الأبدان في طاعة الله ﷻ، فعن أبي ســعيد الخدري رضي الله عنه أن رســول الله ﷺ قال: "إِنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ يَتَرَاءَوْنَ أَهْلَ الْغُرَفِ مِنْ فَوْقِهِمْ، كَمَا يَتَرَاءَوْنَ الْكَوْكَبَ الدُّرِّيَّ الْغَابِرَ فِي الأُفُقِ مِنَ الْمَشْـرِقِ، أَوِ الْمَغْرِبِ لِتَفَاضُـلِ مَا بَيْنَهُمْ". قالوا: يا رسـول الله؛ تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم؟ قال: "بَلَى، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ! رِجَالٌ آمَنُوا بِاللهِ وَصَدَّقُوا الْمُرْسَلِينَ"(١). هكذا نجد أن أهمَّ شرط لدخول الجنة هو الإيمان الخالص لله تعالى، والتصديق برسله صلوات الله عليهم.

ثم تأتي الأحاديث بعد ذلك لتبيِّن الصــفات والأعمال، التي يجب أن يحرص عليها كل مســلم يرغب في جنة ربه، ويتنعم بنعيمها الدائم الذي لا ينفد، فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: "سَــبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لا ظِلَّ إِلاَّ ظِلُّهُ: الإِمَامُ الْعَادِلُ، وَشَابٌّ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ رَبِّهِ، وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ فِي الْمَسَاجِدِ، وَرَجُلانِ تَحَابَّا فِي اللهِ؛ اجْتَمَعَا عَلَيْهِ وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ، وَرَجُلٌ طَلَبَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِــبٍ وَجَمَالٍ، فَقَالَ: إِنِّي أَخَافُ اللهَ. وَرَجُلٌ تَصَــدَّقَ أَخْفى؛ حَتَّى لا تَعْلَمَ شِــمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ، وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللهَ خَالِيًا فَفَاضَــتْ عَيْنَاهُ"(٢). فإذا وُجدت أيٌّ من هذه الصفات في الفرد المسلم كان من المنعَّمين بظلِّ الله يوم القيامة.

---

(١) البخاري: كتاب الرقاق، باب صــفة الجنة والنار، (٦١٨٨)، عن أبي ســهل، ومســلم: كتاب الجنة وصــفة نعيمها وأهلها، باب ترائي أهل الجنة أهل الغرف... (٢٨٣١)، واللفظ له.

(٢) البخاري: كتاب الزكاة، باب الصدقة باليمين، (١٣٥٧)، ومسلم: الزكاة باب فضل إخفاء الصدقة (١٠٣١).

ويتعدَّد الترغيب ليشـمل كل عبادة وكل عمل يقوم به الإنسـان ابتغاء مرضـاة الله، فعن أبي هريرة ﷺ أنه قال: قال رسـول الله ﷺ: "مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَبِرَسُـولِهِ، وَأَقَامَ الصَّـلاةَ، وَصَـامَ رَمَضَـانَ، كَانَ حَقًّا عَلَى اللهِ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ، جَاهَدَ فِي سَـبِيلِ اللهِ، أَوْ جَلَسَ فِي أَرْضِـهِ الَّتِي وُلِدَ فِيهَا". فقالوا: يا رسـول الله؛ أفلا نبشِّـر النَّاس؟ قال: "إِنَّ فِي الْجَنَّةِ مِائَةَ دَرَجَةٍ أَعَدَّهَا اللهُ لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَـبِيلِ اللهِ، مَا بَيْنَ الدَّرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّـمَاءِ وَالأَرْضِ، فَإِذَا سَـأَلْتُمُ اللهَ فَاسْـأَلُوهُ الْفِرْدَوْسَ؛ فَإِنَّهُ أَوْسَـطُ الْجَنَّةِ وَأَعْلَى الْجَنَّةِ، أُرَاهُ فَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ، وَمِنْهُ تَفَجَّرُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ"(١). هذه بعض أحاديث النبي ﷺ في وصـفه للجنة والنعيم، الذي أُعِدَّ فيها للمؤمنين الصـالحين، الذين باعوا دنياهم ليشتروا آخرتهم، وهذا الوصف مما لا شكَّ فيه أَسَر قلوب مستمعيه من الصحابة الكرام؛ فدفعهم إلى الاستزادة من فعل الخيرات، بل وحَثَّهم على سؤاله ﷺ عن الجنة ونعيمها؛ فعن أبي هريرة ﷺ قال: قُلْنَا: يَا رَسُـولَ اللهِ؛ حَدِّثْنَا عَنِ الْجَنَّةِ، مَا بِنَاؤُهَا؟ قَالَ: "لَبِنَةُ ذَهَبٍ وَلَبِنَةُ فِضَّـةٍ، وَمِلاطُهَا الْمِسْـكُ الأَذْفَرُ، وَحَصْـبَاؤُهَا اللُّؤْلُؤُ وَالْيَاقُوتُ، وَتُرَابُهَا الزَّعْفَرَانُ، مَنْ يَدْخُلُهَا يَنْعَمُ وَلا يَبْأَسُ، وَيَخْلُدُ وَلا يَمُوتُ، لا تَبْلَى ثِيَابُهُ وَلا يَفْنَى شَبَابُهُ.."(٢).

هكذا نجد أن هذا الأسلوب كان يأتي بأفضل الثمار مع الصحابة ﷺ جميعًا؛ ولهذا استخدمه النبي ﷺ في الكثير من أمور الدين؛ سواء أكانت عبادات أو معاملات، ففي العبادات رغَّب النبي ﷺ وحض الصحابة على أهمية الصـفِّ الأول في الصـلاة، وأهمية صـلاة الفجر؛ لما لها من فضـل كبير عند الله ﷻ، فعن أبي هريرة أن رسـول الله ﷺ قال: "لَوْ يَعْلَمُ النَّاسُ مَا فِي النِّدَاءِ وَالصَّـفِّ الأَوَّلِ، ثُمَّ لَمْ يَجِدُوا إِلاَّ أَنْ يَسْتَهِمُوا عَلَيْهِ لاسْتَهَمُوا، وَلَوْ يَعْلَمُونَ مَا فِي التَّهْجِيرِ لاسْتَبَقُوا إِلَيْهِ، وَلَوْ يَعْلَمُونَ مَا فِي الْعَتَمَةِ وَالصُّبْحِ لأَتَوْهُمَا وَلَوْ حَبْوًا"(٣).

ومن هنا نجد أن هذه الأحاديث وغيرها الكثير، مما قالها النبي ﷺ في ترغيب أُمَّته لفعل الخير –مما لا شـكَّ فيه– أنها دَقَّت على وتر مهمٍّ في النفس البشرية؛ ألا وهو الرجاء والأمل في الخير الذي تتشوَّق إليه، فكان

(١) البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب درجات المجاهدين في سبيل الله... (٢٦٣٧).

(٢) أحمد في مسنده: مسند المكثرين من الصحابة، (٨٠٣٠)، تعليق شعيب الأرناءوط: صحيح بطرقه وشواهده.

(٣) البخاري: كتاب الأذان، باب الاستهام في الأذان، (٥٩٠)، ومسلم، كتاب: الصلاة، باب تسوية الصفوف وإقامتها وفضل الأول... (٤٣٧).

هذا دافعًا لها أن تسلك طريق الخير، الذي يرضاه الله ﷻ ورسوله ﷺ.

وكما استعمل النبي ﷺ أسلوب الترغيب لتوجيه المسلمين وإرشادهم نحو الخير، واتباع السلوك الذي تصلح به حياتهم الدنيوية والأخروية، استعمل -أيضًا- ﷺالترهيب كأسلوب تربوي لتصحيح مسار الإنسان، وزجره عن كثير من السلوكيات الخاطئة والانحرافات السيئة، من خلال ما أخبر به ﷺ من وعيدٍ وعذابٍ يرتقب المخالفين والمنحرفين والمقصِّرين، فكان له أكبر الأثر في استقامة المخاطبين، ووضعهم على جادة الصواب؛ وذلك لأنه من الملاحظ والمعهود أن هناك طائفة من الناس لا يُصلحهم الإقناع الفكري المجرَّد، ولا تكفي لإصلاحهم وسيلة الترغيب، وأن أنجح علاجات الإصلاح بالنسبة إليهم هي وسيلة الترهيب(١)، ومن أحاديث الترهيب التي استعملها النبي ﷺ في التربية والتوجيه، ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه قال: قال ﷺ: "نَارُكُمْ جُزْءٌ مِنْ سَبْعِينَ جُزْءًا مِنْ نَارِ جَهَنَّمَ". قيل: يا رسول الله؛ إن كانت لكافيةً. قال: "فُضِّلَتْ عَلَيْهِنَّ بِتِسْعَةٍ وَسِتِّينَ جُزْءًا كُلُّهُنَّ مِثْلُ حَرِّهَا"(٢). فكما أن النبي ﷺ استخدم في أسلوب الترغيب وصفه للجنة وهي أغلى شيء تتوق إليه النفس، كذلك استخدم في أسلوب الترهيب وصف جهنم وحرِّها؛ حتى يترك في النفس أثرًا يقودها إلى فعل الخير وترك فعل الشرِّ، كما حذَّر النبي صحابته ﷺ من الشرك الخفي -وهو الرياء- الذي يُبطل ثواب الأعمال، حتى وإن كانت جهادًا في سبيل الله، فعن أُبَيِّ بن كعب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "بَشِّرْ هَذِهِ الأُمَّةَ بِالسَّنَاءِ وَالرِّفْعَةِ وَالدِّينِ وَالنَّصْرِ وَالتَّمْكِينِ فِي الأَرْضِ". وهو يشكُّ في السَّادسة قال: "فَمَنْ عَمِلَ مِنْهُمْ عَمَلَ الآخِرَةِ لِلدُّنْيَا لَمْ يَكُنْ لَهُ فِي الآخِرَةِ نَصِيبٌ"(٣).

وفي نموذج آخر من نماذج الترهيب يقول ﷺ: "ثَلاَثَةٌ لاَ يُكَلِّمُهُمُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَلاَ يُزَكِّيهِمْ - قَالَ أَبُو مُعَاوِيَةَ: وَلاَ يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ - وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ: شَيْخٌ زَانٍ، وَمَلِكٌ كَذَّابٌ، وَعَائِلٌ مُسْتَكْبِرٌ"(٤). فانظر إلى عقاب الله لهؤلاء النفر وتشديد العقوبة عليهم، فالشيخ الزاني قد ذهبت عنه دواعي الزنا من قوَّة الشهوة وكثرة الحركة،

(١) زياد محمود العاني: أساليب الدعوة والتربية في السنة، ص٢٥١، بتصرف.

(٢) البخاري: كتاب بدء الخلق، باب صفة النار وأنها مخلوقة، (٣٠٩٢).

(٣) أحمد في مسنده: مسند الأنصار، (٢١٢٥٨)، تعليق شعيب الأرناءوط: إسناده قوي.

(٤) مسلم: كتاب الإيمان، باب بيان غلظ تحريم إسبال الإزار والمن بالعطية... (١٠٧).

وقوَّة النظر، فهو مستخفٌّ بحدود الله ﷻ فكان له هذا العقاب، والملك الكذاب لأن الكذب يكون غالبًا لجلب نفع، أو دفع ضرٍّ، والملك لا يخاف أحدًا فيُصانعه، فما داعي الكذب، وما داعي تضليل الناس الذين وثقوا فيه؟! فهو منه قبيح لفقد الضرورة، والعائل المستكبر -أي: الفقير- لأنه فقد أسباب الكبر من مال وجاهٍ.

وقد شدَّد النبي ﷺ على ترك العديد من الموبقات المنتشرة في المجتمع الجاهلي وقتئذٍ، والتي لها آثار سيئة على المجتمع، ومن ترهيبه ﷺ من هذه الموبقات، قال: "ثَلاَثَةٌ لاَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ: مُدْمِنُ خَمْرٍ، وَقَاطِعُ رَحِمٍ، وَمُصَدِّقٌ بِالسِّحْرِ. وَمَنْ مَاتَ مُدْمِنًا لِلْخَمْرِ سَقَاهُ اللهُ ﷻ مِنْ نَهْرِ الْغُوطَةِ". قِيل: وَمَا نَهَرُ الْغُوطَةِ؟ قَالَ: "نَهْرٌ يَجْرِي مِنْ فُرُوجِ الْمُومِسَاتِ، يُؤْذِي أَهْلَ النَّارِ رِيحُ فُرُوجِهِمْ"(١). هذا الحديث فيه من الوعيد والتحذير ما يُرعب القلب ويُذهب العقل.

بينما رُوِيَ عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: "مَا مِنْ صَاحِبِ ذَهَبٍ وَلا فِضَّةٍ لا يُؤَدِّي مِنْهَا حَقَّهَا، إِلاَّ إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ صُفِّحَتْ لَهُ صَفَائِحُ(٢) مِنْ نَارٍ، فَأُحْمِيَ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ، فَيُكْوَى بِهَا جَنْبُهُ وَجَبِينُهُ وَظَهْرُهُ، كُلَّمَا بَرَدَتْ أُعِيدَتْ لَهُ، فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، حَتَّى يُقْضَى بَيْنَ الْعِبَادِ، فَيَرَى سَبِيلَهُ إِمَّا إِلَى الْجَنَّةِ، وَإِمَّا إِلَى النَّارِ". قيل: يا رسول الله؛ فالإبل؟ قال: "وَلا صَاحِبُ إِبِلٍ لا يُؤَدِّي مِنْهَا حَقَّهَا، وَمِنْ حَقِّهَا حَلَبُهَا يَوْمَ وِرْدِهَا، إِلاَّ إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ، (بُطِحَ لَهَا بِقَاعٍ قَرْقَرٍ)(٣) أَوْفَرَ مَا كَانَتْ، لا يَفْقِدُ مِنْهَا فَصِيلاً وَاحِدًا، تَطَؤُهُ بِأَخْفَافِهَا، وَتَعَضُّهُ بِأَفْوَاهِهَا، كُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ أُولاهَا، رُدَّ عَلَيْهِ أُخْرَاهَا، فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، حَتَّى يُقْضَى بَيْنَ الْعِبَادِ فَيَرَى سَبِيلَهُ؛ إِمَّا إِلَى الْجَنَّةِ، وَإِمَّا إِلَى النَّارِ..."(٤). فقد وردت آيات قرآنية كثيرة

---

(١) أحمد في مسنده (١٩٥٨٧)، تعليق شعيب الأرناءوط: حسن لغيره. والحاكم في المستدرك، كتاب الأشربة، (٧٢٣٤)، قال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه. وقال الذهبي: صحيح.

(٢) الصفائح جمع صفيحة: وهي العريضة من الحديد وغيره؛ أي: جعلت كنوزه الذهبية والفضية كأمثال الألواح.

(٣) قال جماعة: معناه أُلْقِيَ على وجهه. وقال القاضي: ليس من شرط البطح كونه على الوجه، وإنما هو في اللغة بمعنى البسط والمد، فقد يكون على وجهه، وقد يكون على ظهره، ومنه سميت بطحاء مكة لانبساطها، والقاع المستوي الواسع من الأرض يعلوه ماء السماء فيمسكه.

(٤) مسلم: كتاب الزكاة، باب إثم مانع الزكاة، (٩٨٧).

وأحاديث نبوية شـريفة تأمر بإخراج زكاة المال وتُرَغِّب فيه، ولكن حبّ المال قد يعمي صـاحب المال عن سـماع مثل هذه الآيات والأحاديث، فلا تُغني فيه كثرة المواعظ، ولا تنفعه الترغيبات، فيبخل بإخراج زكاته، فكان لا بُدَّ من اسـتخدم أسـلوب الترهيب المخيف، لعلَّه يزيح عن قلبه وعقله تلك المحبة، التي أعمت بصيرته، ومنعته من أداء حقِّ ماله(١).

فلكي يُؤْتِي الترغيب والترهيب ثمارهما لا بُدَّ أن يعرض المرّغب فيه والمرهب منه واقعًا تشـهده النفوس، وتحسُّـه المشـاعر، وتراه وتتأثَّر به وترتعش له، وتسـتجيب له بإيمانها، موقنة بأنه آتٍ، هكذا كان المؤمنون.. لقد تفاعلت نفوسهم مع هذا الأسلوب الرَّبَّاني والنبوي الشريف، فتكيَّفت معه حياتهم، وتكيَّف به سلوكهم حين كانوا يعيشونه ويحيون به(٢).

(١) زياد محمود العاني: أساليب الدعوة والتربية في السنة النبوية، ص٢٥٣.

(٢) عبد الرحمن النحلاوي: التربية بالترغيب والترهيب، ص٢٤، بتصرف.

المبحث السابع: التربية بالعادة

التربية بالعادة من أنجح الوسائل التربوية وأكثرها تأثيرًا؛ لأن النفس البشرية التي تتعوَّد فعلاً معيَّنا يسهل عليها القيام به، بل وتشعر بالسعادة عندما تُؤَدِّيه، ونظرًا لخطورة هذا الأسلوب التربوي في حياة البشر فقد استخدمه النبي ﷺ ليُحَوِّل به العادة إلى عبادة، فيحول "الخير كله إلى عادة، تَقُومُ بها النفس بغير جهد، وبغير كَدٍّ، وبغير مقاومة، وفي الوقت ذاته يَحُولُ دون الآلية الجامدة في الأداء؛ بالتذكير الدائم بالهدف المقصود من العادة، والربط الحيّ بين القلب البشري وبين الله ﷻ، ربطًا تسري فيه الشجاعة المنيرة إلى القلب، فلا ترين عليه الظلمات[(١)].

ولأن الإنسان مفطور على حُبِّ الخير لأخيه الإنسان، فإن غرس العادات الطيبة في نفسه وسلوكه من الأمور الميسورة، وكذلك استبدال عاداته السيئة بأخرى طيبة، أو إقراره على عاداته الحسنة، وذلك من خلال عدَّة طرق سلكها رسول الله ﷺ، من تلقين مباشر أو تدريب عملي أو تكرار أو تدرج.. إلخ، حتى يُعَوِّد أصحابه على قيم يَعْنِيهَا أو سلوك يقصده، ولا يكون ذلك إلاَّ بعد استحضار النية في ذلك العمل؛ ليكون خالصًا ومتقبَّلاً من الله ﷻ، فعن عمر أَنَّ رسول الله ﷺ قال: "الأَعْمَالُ بِالنِّيَّةِ، وَلِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى، فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ، فَهِجْرَتُهُ إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ، وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ لِدُنْيَا يُصِيبُهَا، أَوِ امْرَأَةٍ يَتَزَوَّجُهَا، فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ"[(٢)]. ففي هذا الحديث دعوة لكل مسلم أن يُحَوِّل أعماله الحياتية، التي يُؤَدِّيها بشكل روتيني إلى عمل تعبُّدي يُثاب عليه، ويشعر معه أنه دائم الصلة بربِّه؛ لذلك نجد أن أحاديث كثيرة لرسول الله ﷺ تُوَجِّه المسلم إلى ضرورة ذِكْر الله في كل وقت؛ قبل نومه، وعند استيقاظه، وعند أكله وعند جماعه لزوجه.. إلخ، ومنها ما رواه البراء بن عازب ﷺ قال: قال النبي ﷺ: "إِذَا أَتَيْتَ مَضْجَعَكَ فَتَوَضَّأْ وُضُوءَكَ لِلصَّلاَةِ، ثُمَّ اضْطَجِعْ عَلَى شِقِّكَ الأَيْمَنِ، ثُمَّ قُلِ: اللَّهُمَّ أَسْلَمْتُ وَجْهِي إِلَيْكَ، وَفَوَّضْتُ أَمْرِي إِلَيْكَ، وَأَلْجَأْتُ ظَهْرِي إِلَيْكَ، رَغْبَةً وَرَهْبَةً إِلَيْكَ، لاَ مَلْجَأَ وَلاَ مَنْجَا مِنْكَ إِلاَّ إِلَيْكَ، اللَّهُمَّ آمَنْتُ بِكِتَابِكَ الَّذِي أَنْزَلْتَ، وَبِنَبِيِّكَ الَّذِي أَرْسَلْتَ. فَإِنْ مُتَّ مِنْ

---

(١) محمد قطب: منهج التربية الإسلامية، دار الشروق- القاهرة، الطبعة السابعة عشرة، ١٤٢٨هـ=٢٠٠٧م، ص٢٠٠، بتصرف.

(٢) البخاري: كتاب الإيمان، باب ما جاء أن الأعمال بالنية الحسنة... (٥٤).

لَيْلَتِكَ فَأَنْتَ عَلَى الْفِطْرَةِ، وَاجْعَلْهُنَّ آخِرَ مَا تَتَكَلَّمُ بِهِ". قال: فردَّدتها على النَّبيِّ ﷺ فلمَّا بَلَغْتُ: "اللَّهُمَّ آمَنْتُ بِكِتَابِكَ الَّذِي أَنْزَلْتَ". قُلْتُ: وَرَسُولِكَ. قَالَ "لاَ، وَنَبِيِّكَ الَّذِي أَرْسَلْتَ"[1]. وفي هذا الحديث تلقين وتوجيه وتدريب عملي ومباشر لأمور حياتية، تحوَّلت بفضل النية والعادة اليومية إلى أمر تعبُّدي.

واستعمل النبي ﷺ عدَّة طرق لتأصيل العادة في نفوس أصحابه؛ من أهمها تعويدهم وتلقينهم لمبادئ الدين وشعائره، وتعديل ما يحدث من أخطاء تعبُّدية أو أخلاقية.. أو غير ذلك، فعن أبي هريرة ﷺ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ دَخَلَ الْمَسْجِدَ، فَدَخَلَ رَجُلٌ فَصَلَّى، فَسَلَّمَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فَرَدَّ، وَقَالَ: "ارْجِعْ فَصَلِّ؛ فَإِنَّكَ لَمْ تُصَلِّ". فَرَجَعَ يُصَلِّي كَمَا صَلَّى، ثُمَّ جَاءَ فَسَلَّمَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: "ارْجِعْ فَصَلِّ فَإِنَّكَ لَمْ تُصَلِّ". ثلاثًا فَقَالَ: وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ! مَا أُحْسِنُ غَيْرَهُ فَعَلِّمْنِي. فَقَالَ: "إِذَا قُمْتَ إِلَى الصَّلاةِ فَكَبِّرْ، ثُمَّ اقْرَأْ مَا تَيَسَّرَ مَعَكَ مِنَ الْقُرْآنِ، ثُمَّ ارْكَعْ حَتَّى تَطْمَئِنَّ رَاكِعًا، ثُمَّ ارْفَعْ حَتَّى تَعْتَدِلَ قَائِمًا، ثُمَّ اسْجُدْ حَتَّى تَطْمَئِنَّ سَاجِدًا، ثُمَّ ارْفَعْ حَتَّى تَطْمَئِنَّ جَالِسًا، وَافْعَلْ ذَلِكَ فِي صَلاتِكَ كُلِّهَا"[2]. بهذا الأسلوب النبوي تَعَلَّم الصحابي وتعوَّد فعليًّا على الصلاة الصحيحة، فانطبعت في أخلاقه، واستقرَّت في نفسه.

أمَّا في مجال الأخلاق نجده ﷺ يأمر صحابته بضرورة التعوُّد على فعل الحسنات، والتعوُّد كذلك على ترك السيئات، فيقول ﷺ لأبي ذرٍّ ﷺ: "اتَّقِ اللهَ حَيْثُمَا كُنْتَ، وَأَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمْحُهَا، وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ"[3].

كما استخدم النبي ﷺ التكرار في تدريب صحابته وتعويدهم على فعل الخير واجتناب الشرِّ، فعن أنس عن النبي ﷺ: "أَنَّهُ كَانَ إِذَا تَكَلَّمَ بِكَلِمَةٍ أَعَادَهَا ثَلاثًا؛ حَتَّى تُفْهَمَ عَنْهُ، وَإِذَا أَتَى عَلَى قَوْمٍ فَسَلَّمَ عَلَيْهِمْ سَلَّمَ عَلَيْهِمْ ثَلاثًا"[4]. وعن ابن عمر: أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللهِ ﷺ، وَهُوَ مُسْتَقْبِلُ الْمَشْرِقَ، يَقُولُ: "أَلاَ إِنَّ الْفِتْنَةَ هَهُنَا، أَلاَ إِنَّ الْفِتْنَةَ

---

(١) البخاري: كتاب الوضوء، باب فضل من بات على الوضوء، (٢٤٤).

(٢) البخاري: كتاب صفة الصلاة، باب وجوب القراءة للإمام، (٧٢٤).

(٣) الترمذي في سننه: كتاب البر والصلة، باب معاشرة الناس، (١٩٨٧).

(٤) البخاري: كتاب العلم، باب من أعاد الحديث ثلاثًا، (٩٥).

هُهُنَا، مِنْ حَيْثُ يَطْلُعُ قَرْنُ الشَّيْطَانِ"(١). وللتدريب العملي أثرُه الكبير في غرس العادات في النفوس؛ "فبالتكرار ومرور الزمن تُصبح هذه التدريبات جزءًا من عادات الفرد المتمكِّنة، ذات الجذور العميقة في قرارة نفسه"(٢).

ومن أمثلة ذلك أنه "كان ﷺ يأمرهم في الصلاة اليومية خمس مرَّات برصِّ الصفوف، وسدِّ الفُرَج، واعتدال الصف، وعدم سبق الإمام بركوع أو سجود؛ مما له أكبر الأثر في تعويدهم على النظام والطاعة"(٣)، فقد روى لنا أنس بن مالك ﷺ فقال: قال رسول الله ﷺ: "سَوُّوا صُفُوفَكُمْ؛ فَإِنَّ تَسْوِيَةَ الصُّفُوفِ مِنْ إِقَامَةِ الصَّلاَةِ"(٤). وعن البراء بن عازب قال: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَتَخَلَّلُ الصَّفَّ مِنْ نَاحِيَةٍ إِلَى نَاحِيَةٍ، يَمْسَحُ صُدُورَنَا وَمَنَاكِبَنَا، وَيَقُولُ: "لاَ تَخْتَلِفُوا فَتَخْتَلِفَ قُلُوبُكُمْ". وَكَانَ يَقُولُ: "إِنَّ اللهَ وَمَلاَئِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى الصُّفُوفِ الأُوَلِ"(٥).

ولم يكتفِ النبي ﷺ بتأصيل العادات الحسنة، أو إقرارها إن كانت تُؤدَّى من قِبَلَ المسلم، ولكنه ﷺ كان حريصًا -كذلك- على اقتلاع العادات السيئة من المجتمع؛ مثل: عادة وأد البنات، أو عبادة الأوثان.. وغير ذلك، فهذه عادات لا يمكن السكوت عليها؛ لأنها عادات لا تستقيم مع قيم ومبادئ المجتمع المسلم.

كما واجه النبي ﷺ العادات الأخلاقية مثل الكذب والغيبة.. مواجهة متدرِّجة، وكذلك واجه ﷺ العادات الاجتماعية؛ مثل: الخمر والرقِّ والزنا.. "فهي ليست من العادات التي تستطيع كل نفس أن تحسم موقفها منها في لحظة، فلا يعاودها الحنين إليها ولا تعود؛ لذلك لجأ في علاج كل منها إلى التدرُّج على مراحل ودرجات"(٦).

هذا هو أسلوب النبي ﷺ في التربية بالعادة، التي عَمِل من خلالها على تأصيل العادات الحسنة، واقتلاع

(١) مسلم: كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب الفتنة من المشرق... (٢٩٠٥).

(٢) عبد الرحمن حبنكة الميداني: أسس الحضارة الإسلامية، ص٧٥.

(٣) زياد محمود العاني: أساليب الدعوة والتربية في السنة النبوية، ص٣١٥.

(٤) مسلم: كتاب الصلاة، باب تسوية الصفوف وإقامتها، (٤٣٣).

(٥) أبو داود في سننه: كتاب الصلاة، باب تسوية الصفوف، (٦٦٤)، قال الألباني: صحيح.

(٦) محمد قطب: منهج التربية الإسلامية ص٢٠٢.

العادات السـيئة؛ حتى أصـبحت ديدنًا لهم، فتمكَّنت من نفوسـهم وعقولهم، وأصـبحت حياتهم خالصـة لخالقهم تبارك وتعالى، فما أحوجنا -في عصرنا الراهن- إلى مثل هذا الأسلوب الرائع!

المبحث الثامن: التربية بضرب الأمثال

ضرب الأمثال أسلوب قرآني رائع، يقرب المراد من الأذهان، ويُبرز المعقول في صورة محسوسة يتقبَّلها العقل؛ فإذا المعاني واضحة جلية كاشفة القناع عن كل مضامينها؛ فلا تكون هناك حجَّة لمحتج، أو اعتراض لمعترض؛ ومن أجل هذا حفل القرآن الكريم بالعديد من الأمثال، التي ضربها الله ﷻ من أجل هدف محدَّد، قال الله تعالى عنه:

﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾(١)، فالأمثال تُضرب للتذكرة بكل آلاء الله ونعمه التي لا تُعَدُّ ولا تُحصى.

وقد استخدم النبي ﷺ هذا الأسلوب لترسيخ أغلب القيم التربوية في نفوس أصحابه، وفي مقدمتها ترسيخ العقيدة الصحيحة في النفوس، فتنأى النفس بذلك وتبرأ من الشرك، فضَرْبُ المثل يعمل على تقريب الأشياء المراد توضيحها، فيُصَوِّرها بصورة المحسوس، الذي يلمسه الناس، فيكون ذلك أقرب إلى الوعي فَيَثْبُت في الأذهان -أيضًا- يهدف إلى "إذكاء الهمَّة نحو عمل الخير والصدقات والواجبات الاجتماعية، فيُصبح السلوك المطلوب -الذي سِيقَ المثل من أجل تربية الإنسان عليه- محبَّبًا إلى النفس؛ لاقترانه بالرغبة والثواب، ويُصبح السلوك السَّيِّئ الذي سِيقَ المثل ليُرَبِّينَا على تَجَنُّبه مكروهًا؛ لاقترانه بالانفعالات المنفرة"(٢).

ونظرًا لهذه الأهمية "فلا غرابة أن يستعين بها عدد غير قليل من المربِّين كأسلوب من أساليب التربية، وأن يكون الرسول ﷺ أبرز مَنِ اعتمد عليها في هذا الشأن، مع اختلافٍ واضح، وهو أن المثل على وجه العموم إذا كان مجهولاً مؤلِّفه، إلاَّ أننا هنا أمام أمثال معروفة نسبتها للرسولﷺ؛ مما يُكسبها مزيدًا من قوَّة، فهو أفصح من نطق بالضاد ﷺ"(٣).

فالنبي ﷺ استخدم المثل لتقريب المراد من الأذهان، كوسيلة تربوية مهمة تُصوِّر وتُجسِّم بالإحساس

---

(١) (الزمر: ٢٧، ٢٨).

(٢) عبد الرحمن النحلاوي: التربية بضرب الأمثال، دار الفكر، دمشق، الطبعة الثانية، ١٤٢٦هـ=٢٠٠٥م، ص١١.

(٣) سعيد إسماعيل علي: السنة النبوية رؤية تربوية، ص٣٧١.

المرهف، والكلمات البليغة جوانبَ مختلفة في التربية، فعندما أراد رســول الله ﷺ أن يغرس في قلوب وعقول أُمَّته أن أنبياء الله ﷻ ســاروا على درب ونادوا بهدف واحد، ودعوا إلى توحيد خالق واحد، وأُرســلوا برســالة واحدة، ألا وهي الإسلام، كما قال الله ﷻ:

﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ﴾(١).

والنبي عليه الصلاة والسلام استخدم في ذلك المثل كأسلوب تربوي، يُقَرِّب هذا المعنى بكل سهولة ويُسْرٍ، فعن أبي هريرة ﷺ أن رســول الله ﷺ قال: "إِنَّ مَثَلِي وَمَثَلَ الأَنْبِيَاءِ مِنْ قَبْلِي كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنَى بَيْتًا، فَأَحْسَــنَهُ وَأَجْمَلَهُ، إِلاَّ مَوْضِــعَ لَبِنَةٍ مِنْ زَاوِيَةٍ، فَجَعَلَ النَّاسُ يَطُوفُونَ بِهِ وَيَعْجَبُونَ لَهُ، وَيَقُولُونَ: هَلاَّ وُضِــعَتْ هَذِهِ اللَّبِنَةُ. قَالَ: فَأَنَا اللَّبِنَةُ، وَأَنَا خَاتِمُ النَّبِيِّينَ"(٢). هذا المثل الذي ســاقه النبي ﷺ للصــحابة خاصَّــة ولأُمَّته عامَّة، فيه من المعاني والكلمات الحكيمة البليغة ما يُطلِق العقل والقلب للتأمُّل والتفكُّر فيها، فيكون ذلك من أقرب الطرق لرسوخ الإيمان في النفس –أيضًا– أكَّد هذا الحديث الشريف على ضرورة الإيمان برسل الله وأنبيائه جميعًا، فلا نُفَرِّق بين أحد منهم؛ فالجميع أدَّى رســالته على أكمل وجه مع قومه؛ وفي نهاية الحديث أكَّد ووضَّــح النبيﷺ أهمية بعثته الخاتمة، والتي أنهى الله بها الرسالات السماوية، وذلك حينما صوَّر شخصه ﷺ باللبنة التي يُرجى وضعها؛ لتمام بناء الصرح الجميل.

أيضًــا اســتخدم النبي ﷺ المثل كوســيلة تربوية لبناء المجتمع الصــالح المتعاون، الذي تســوده المودَّة والمحبَّة والرحمة، فعن النعمان بن بشــير ﷺ قال: قال رســول الله ﷺ: "مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ، مَثَلُ الْجَسَدِ؛ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى"(٣). فهذا الحديث يضع لبنات المجتمع الناجح، فهو الذي تتآلف فيه القلوب وتتعاون فيه الأبدان، ويُؤَكِّد أن هذا هو الســبيل الوحيد لرفعة المجتمعات وبناء الأجيال الصالحة، وهذا المثل الرائع الذي ساقه النبي ﷺ للأُمَّة جميعًا، لم يكن ضربًا من الخيال، أو أمرًا محال تحقيقه، بل تحقَّق بالفعل، وأتى بأفضــل ثماره في مجتمع الصــحابة؛ وذلك عندما

(١) (آل عمران: ١٩).

(٢) البخاري: كتاب المناقب، باب خاتم النبيين ﷺ، (٣٣٤٢).

(٣) مسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب تراحم المؤمنين، (٢٥٨٦).

طبَّقوا أمر رسول الله ﷺ الداعي إلى التآخي والترابط، بل وعدَّه النبي ﷺ من أهمِّ الأسباب التي تقوم عليها دولته الجديدة في المدينة المنورة؛ ولذلك رأينا صورًا للصحابة الأطهار في الأُخُوَّة يتعجَّبُ لها الصاحبُ والعدوُّ، كما أكَّد النبي ﷺ في حديث آخر على ضرورة هذا التآخي؛ لأنه السبيل لقوَّة المجتمع وسلامته من الأحقاد والأضغان، فعن أبي موسى عن النبي ﷺ قال: "إِنَّ الْمُؤْمِنَ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا". وشبك أصابعه(١).

ومن الروائع التي ربَّى عليها ﷺ صحابته، تربيتهم على الإيجابية، فلا يرى أحدهم عملاً منكرًا إلاَّ وكان له قول أو فعل فيه –آمرًا بالمنكر– ولا يرى أحدهم عملاً صالحًا طيِّبًا إلاَّ ودعا غيره إليه –آمرًا بالمعروف– بل وحذَّرهم رسول الله ﷺ من مغبَّة ترك هذا الأمر، ومن أجل ذلك ضرب مثلاً في غاية البلاغة، فكان له تأثيره العميق في نفوس مستمعيه من الصحابة، فعن النعمان بن بشير رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: "مَثَلُ الْقَائِمِ عَلَى حُدُودِ اللهِ وَالْوَاقِعِ فِيهَا كَمَثَلِ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا عَلَى سَفِينَةٍ، فَأَصَابَ بَعْضُهُمْ أَعْلاهَا وَبَعْضُهُمْ أَسْفَلَهَا، فَكَانَ الَّذِينَ فِي أَسْفَلِهَا إِذَا اسْتَقَوْا مِنَ الْمَاءِ مَرُّوا عَلَى مَنْ فَوْقَهُمْ، فَقَالُوا: لَوْ أَنَّا خَرَقْنَا فِي نَصِيبِنَا خَرْقًا، وَلَمْ نُؤْذِ مَنْ فَوْقَنَا. فَإِنْ يَتْرُكُوهُمْ وَمَا أَرَادُوا هَلَكُوا جَمِيعًا، وَإِنْ أَخَذُوا عَلَى أَيْدِيهِمْ نَجَوْا، وَنَجَوْا جَمِيعًا"(٢). أنارت هذه الكلمات الموجزة البليغة قلوب الصحابة الأطهار، فالتزموا بها ووعوها جيدًا، وعملوا بها؛ لأنهم علموا أنها سبيل النجاة في الدنيا والآخرة؛ فالقائم على حدود الله هو المطبِّقُ لها، والملتزم بالطاعة، والواقع فيها هو المرتكب للمعصية، والمجترئ عليها، وإنَّ تَرْكَ القائمِ على حدود الله تعالى لأهل المعاصي والفجور والضلال والمنكرات، دون أن يأخذ على أيديهم، وينهاهم، فإن مصيرهم جميعًا سيكون الهلاك، كأصحاب السفينة فيما لو تركوا من تحتهم يخرقون في نصيبهم خرقًا، والواقع أن أهل المعاصي، أو الساكتين على المنكر، في كل عصر يدَّعون أنهم أحرار فيما يفعلون، وليس لأحد حقٌّ في الاعتراض عليهم أو منعهم، وهذا المثل المضروب ههنا هو إجابة كافية لهم، وإسكات لادعائهم الفارغ(٣).

---

(١) البخاري: كتاب أبواب المساجد، باب تشبيك الأصابع في المسجد وغيره، (٤٦٧).

(٢) البخاري: كتاب الشركة، باب هل يقرع في القسمة والاستهام فيه، (٢٣٦١).

(٣) زياد محمود العاني: أساليب الدعوة والتربية في السنة النبوية، ص٤٣١، بتصرف.

ومن الأمثال التي استعملها النبي ﷺ -كذلك- لتقوية أواصر المجتمع المسلم، تلك الأمثال التي تحضُّ على التكافل المادي عن طريق إخراج الصـدقات، وإيثار الآخرين على النفس؛ فهي سـبيل النجاة من البلايا، كما أنها من أهمِّ الوسـائل لتقوية المجتمع، وحُبّ الناس بعضـهم البعض، فعن الحارث الأشـعري أن نبي الله ﷺ قال: ".. وَآمُرُكُمْ بِالصَّدَقَةِ فَإِنَّ مَثَلَ ذَلِكَ كَمَثَلِ رَجُلٍ أَسَرَهُ الْعَدُوُّ، فَشَدُّوا يَدَيْهِ إِلَى عُنُقِهِ، وَقَدَّمُوهُ لِيَضْرِبُوا عُنُقَهُ، فَقَالَ: هَلْ لَكُمْ أَنْ أَفْتَدِي نَفْسِي مِنْكُمْ. فَجَعَلَ يَفْتَدِي نَفْسَهُ مِنْهُمْ بِالْقَلِيلِ وَالْكَثِيرِ حَتَّى فَكَّ نَفْسَهُ..."(١). ولذلك كان الصـحابة ﷺ مثالاً في العطاء والبذل في سبيل الله، فلا يُوجد بينهم محتاج وآخرُ يمتلك ما يزيد عن قوت يومه، فتأصَّـلت المحبة بينهم وصـلح مجتمعهم، فكان حقًّا لهم أن يقودوا غيرهم من المجتمعات، وخاصَّـة بعدما بَيَّن لهم النبي ﷺ قَدْرَ هذه الدنيا، وأنها لا تسـتحقُّ أن نتصـارع من أجلها، وأن نتنافسـها، فقال: "لَوْ كَانَتِ الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ اللهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَا سَقَى كَافِرًا مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ"(٢). فإذا كانت الدنيا على ما فيها من القصـور والأنهار والأموال لا تُسـاوي جناح بعوضـة، فما أحقرها من دنيا لا نسـتخدمها في طاعة الله، وأيُّ خسارة يخسرها الإنسان إذا منع حقَّ الله ﷻ.

ولا بُدَّ للإنسـان أن يتعامل مع الناس؛ ولكن كيف ينجو من الوقوع في المعاصي والذنوب، ومن الوقوع في حب الدنيا؟ فإذا بالنبي ﷺ ينهى عن أمرٍ ربما يكون سـببًا في غواية كثير من الناس وإضـلالهم وإفسـادهم، ويأمر بأمر آخر فيه إصـلاحٌ للناس وهداية لهم، ويُمَثِّل للأول بأمر حقير تكرهه النفوس، ويُمَثِّل للثاني بأمر طيِّبٍ تُحِبُّه النفوس(٣)، فعن أبي موسى ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "مَثَلُ الْجَلِيسِ الصَّالِحِ وَالْجَلِيسِ السَّوْءِ، كَمَثَلِ صَاحِبِ الْمِسْكِ وَكِيرِ الْحَدَّادِ؛ لا يَعْدَمُكَ مِنْ صَاحِبِ الْمِسْكِ إِمَّا تَشْتَرِيهِ أَوْ تَجِدُ رِيحَهُ، وَكِيرُ الْحَدَّادِ

---

(١) الترمذي كتاب الأمثال، باب مثل الصـلاة والصـيام والصـدقة، (٢٨٦٣)، قال الترمذي: حسـن صـحيح، وأحمد واللفظ له برقم (١٧٢٠٩)، وصححه الألباني و الأرناءوط.

(٢) الترمذي في سـننه: كتاب الزهد، باب ما جاء في هوان الدنيا على الله ﷻ، (٢٣٣٠)، قال الترمذي: صـحيح غريب. وقال الألباني: صحيح.

(٣) زياد محمود العاني: أساليب الدعوة والتربية في السنة النبوية، ص٤٣٠.

يُحْرِقُ بَدَنَكَ أَوْ ثَوْبَكَ، أَوْ تَجِدُ مِنْهُ رِيحًا خَبِيثَةً"(١).

هذا التشبيه البليغ تلقَّته الصحابة بوعي تامٍّ وتطبيق عملي؛ لأنهم أيقنوا تمامًا أن الشرط الأساسي لقيام المجتمع الإسلامي وبلوغه مبلغ العزَّة والكرامة، هو أن يكون أفراده من الصالحين، الذين تعلو نفوسهم عن الرذائل، واتباع سبيل الشيطان.

كما بَيَّن النبي ﷺ لصحابته الكرام أهمية الصلاة ودورها في حياتهم، فيُروى عن أبي هريرة ﷺ: أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: "أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَنَّ نَهَرًا بِبَابِ أَحَدِكُمْ، يَغْتَسِلُ فِيهِ كُلَّ يَوْمٍ خَمْسًا، مَا تَقُولُ ذَلِكَ يُبْقِي مِنْ دَرَنِهِ؟". قَالُوا: لا يُبْقِي مِنْ دَرَنِهِ شَيْئًا. قَالَ: "فَذَلِكَ مِثْلُ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ، يَمْحُو اللهُ بِهَا الْخَطَايَا"(٢). فهذا الحديث يُبَيِّن أهمية المحافظة على الصلوات في التقرُّب من الله ﷻ، فضلاً عن أنها تمحو السيئات والخطايا، كما يفعل الماء في محو الأقذار من الجسد والثياب، وعلى هذا تتربى النفس روحيًّا وإيمانيًّا.

وفي مثال آخر أثار فيه رسول الله قلوب أصحابه إلى حُبِّ القرآن، فعن أبي موسى الأشعري ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "مَثَلُ الْمُؤْمِنِ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَمَثَلِ الأُتْرُجَّةِ؛ رِيحُهَا طَيِّبٌ وَطَعْمُهَا طَيِّبٌ، وَمَثَلُ الْمُؤْمِنِ الَّذِي لا يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَمَثَلِ التَّمْرَةِ؛ لا رِيحَ لَهَا وَطَعْمُهَا حُلْوٌ، وَمَثَلُ الْمُنَافِقِ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ مَثَلُ الرَّيْحَانَةِ؛ رِيحُهَا طَيِّبٌ وَطَعْمُهَا مُرٌّ، وَمَثَلُ الْمُنَافِقِ الَّذِي لا يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَمَثَلِ الْحَنْظَلَةِ؛ لَيْسَ لَهَا رِيحٌ وَطَعْمُهَا مُرٌّ"(٣). هذا الحديث فيه من البلاغة ما يصل العقل به إلى أعلى درجات التفكُّر والاتعاظ، عن طريق الترغيب الذي ذكره النبي ﷺ عن المؤمن الذي يقرأ القرآن، وكذلك التحذير من النفاق، فقد شبَّه النبي ﷺ في هذا الحديث المؤمن الذي يقرأ القرآن بالأُتْرُجه؛ وهي نوع من الفاكهة تجمع طيب الطعم والريح كالتفاحة، وهذا هو الصنف

(١) البخاري: كتاب البيوع، باب السماحة والسهولة في الشراء... (١٩٩٥) واللفظ له، ومسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب استحباب مجالسة الصالحين... (٢٦٢٨).

(٢) البخاري: كتاب مواقيت الصلاة، باب الصلوات الخمس كفارة، (٥٠٥) واللفظ له، ومسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب المشي إلى الصلاة تمحي به الخطايا وترفع به الدرجات، (٦٦٧).

(٣) البخاري: كتاب الأطعمة، باب ذكر الطعام، (٥١١١)، ومسلم: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضيلة حافظ القرآن، (٧٩٧).

الأول، أمَّا الصــنف الثاني الذي تحدَّث عنه ﷺ في الحديث، فهم أهل الإيمان الذين لا يقرءون القرآن، فهم أقل في المنزلة، أمَّا الفئة الثالثة وهم المنافقون الذين يقرءون القرآن رغم نفاقهم، أمَّا الفئة الرابعة فهم أهل النفاق الذين لا يقرءون القرآن، فهم بذلك مثل الحنظلة، التي ليس لها ريح يُنتفع به، فضلاً عن مرارتها.

هكذا نجد أن النبي ﷺ ما ترك وسـيلة من الوسـائل التربوية إلاَّ وقد اسـتعملها، وكان من أهمها ضـرب المثل، الذي أتى بثماره في المجتمع الإسـلامي الأول؛ وهذا لأن الصـحابة رضـوان الله عليهم قد وَعَوْا جيدًا كلام نبيهم ﷺ، فكان الاقتداء به من أهمِّ سماتهم وأبرز خصـالهم، ونظرًا لتأثير هذه الوسيلة في تربية الصـحابة فقد حرصوا هم أنفسهم على تعليم غيرهم بها، فعن أبي عثمان، قال: كُنْتُ مَعَ سَلْمَانَ الْفَارِسِيِّ تَحْتَ شَجَرَةٍ، وَأَخَذَ مِنْهَا غُصْـنًا يَابِسًـا فَهَزَّهُ، حَتَّى تَحَاتَّ وَرَقُهُ، ثُمَّ قَالَ: يَا أَبَا عُثْمَانَ، أَلا تَسْـأَلُنِي لِمَ أَفْعَلُ هَذَا؟ قُلْتُ: وَلِمَ تَفْعَلُهُ؟ فَقَالَ: هَكَذَا فَعَلَ بِي رَسُـولُ اللهِ ﷺ وَأَنَا مَعَهُ تَحْتَ شَـجَرَةٍ، فَأَخَذَ مِنْهَا غُصْـنًا يَابِسًـا، فَهَزَّهُ حَتَّى تَحَاتَّ وَرَقُهُ، فَقَالَ: "يَا سَـلْمَانُ؛ أَلا تَسْـأَلُنِي لِمَ أَفْعَلُ هَذَا؟". قُلْتُ: وَلِمَ تَفْعَلُهُ؟ قَالَ: "إِنَّ الْمُسْـلِمَ إِذَا تَوَضَّـأَ فَأَحْسَـنَ الْوُضُوءَ، ثُمَّ صَلَّى الصَّلَوَاتِ الْخَمْسَ، تَحَاتَّتْ خَطَايَاهُ، كَمَا يَتَحَاتُّ هَذَا الْوَرَقُ". (١).

هذا هو الأسـلوب التربوي النبوي في ضـرب الأمثال، الذي كان له أكبر الأثر في تعليم وتربية جيل الصـحابة الفريد، وعلى المربِّين حسـن الاقتداء بالنبي ﷺ في اسـتعمال هذه الوسـيلة التربوية، حتى نسـتطيع أن نصنع رجالاً يُغيِّرون مجرى التاريخ مرَّة أخرى.

---

(١) أحمد في مسـنده: من حديث رفاعة بن شـداد عن عمر بن الحمق ﷺ، (٢٣٧٥٨)، وقال شـعيب الأرناءوط: حسـن لغيره.

المبحث التاسع: أسلوب التربية بالحدث

من أهمِّ الأساليب التربوية التي استعملها النبي ﷺ في تربية الصحابة ﵃، هو أسلوب التربية بالحدث؛ ففي كل حدث وفي كل موقف من المواقف عِبَرٌ وعظات، يجب أن يُنْظَرَ إليها بعين متأمِّلة؛ سواء كانت أحداثًا سياسية عسكرية، أو أحداثًا عامَّة.. أو غير ذلك، والنبي ﷺ ببراعة المربِّي الصانع كان لا يترك هذه الأحداث تمرُّ دون أن يُرشد أصحابه إلى الدروس والعبر المستفادة منها.

ومزية الأحداث على غيرها من أساليب التربية أنها تُحْدِثُ في النفس حالة خاصَّة، هي أقرب للانصهار، فهي تُثير النفسَ بأكملها، وتُرسل فيها قَدْرًا من حرارة التفاعل والانفعال يكفي لصهرها أحيانًا، أو الوصول بها إلى قرب الانصهار، والمثل يقول: اضرب والحديد ساخن! لأن الضرب حينئذ يسهل الطرْقَ والتشكيل، أمَّا إذا تركته يبرد فهيهات أن تُشَكِّل منه شيئًا، ولو بذلت أكبر الجهود؛ لذلك كان استغلال النبي ﷺ للحادثة أو الموقف له أهمية كبيرة في تربية الجيل الأول؛ وهذا لأن النفس حين انصهارها أمام الموقف، يجعلها ذلك متقبلة لما يريد أن يطبعه المربِّي فيها من توجيهات وتهذيبات، فلا يزول أثرها أبدًا.. أو لا يزول من قريب(١).

والمتتبِّع لآيات القرآن الكريم يجد أنها نزلت متفرِّقة بحسب الأحداث والمواقف، فكان لها أثر كبير في غرس القيم والمعاني غرسًا مُتدرِّجًا هادئًا، أثَّر في نفوسهم، وبنى عقولهم وأفئدتهم بناءً إيمانيًّا وأخلاقيًّا واجتماعيًّا، كما حدث في المرحلة المكية، التي نزل فيها القرآن مواكبًا لأحداثها، وتثبيتًا لأفئدة المؤمنين المبتلين فيها، بل وكان رسول الله ﷺ يمرُّ على الواحد منهم أثناء تعذيبه داعيًا إياه إلى الصبر بقوله: "أَبْشِرُوا آلَ عَمَّارٍ وَآلَ يَاسِرٍ فَإِنَّ مَوْعِدَكُمُ الْجَنَّةُ"(٢).

ففي وسط هذه الأحداث ربَّى رسول الله ﷺ صحابته على معانٍ وقيم عملية؛ لذلك أتت ثمارها، وأخرجت قادة متميِّزين.

وتعدَّدت المواقف والأحداث التي عاشها النبي ﷺ مع صحابته، ومن أهم هذه الأحداث غزوة بدر الكبرى (٢هـ)، التي احتشدت فيها جموع المشركين من أجل القضاء على الفئة المؤمنة، فما كان من رسول

---

(١) محمد قطب: منهج التربية الإسلامية، ص٢٠٧، ٢٠٨، بتصرف.

(٢) الحاكم: في المستدرك، كتاب معرفة الصحابة رضي الله تعالي عنهم، باب ذكر مناقب عمار بن ياسر ﵁، (٥٦٦٦).

الله ﷺ إلاَّ أن رفع يديه بالدعاء إلى ربه؛ طالبًا منه التأييد والنصـر، فعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: لَمَّا كَانَ يَوْمُ بَدْرٍ نَظَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَى الْمُشْرِكِينَ وَهُمْ أَلْفٌ، وَأَصْحَابُهُ ثَلَاثُ مِائَةٍ وَتِسْعَةَ عَشَرَ رَجُلاً، فَاسْتَقْبَلَ نَبِيُّ اللهِ ﷺ الْقِبْلَةَ، ثُمَّ مَدَّ يَدَيْهِ، فَجَعَلَ يَهْتِفُ بِرَبِّهِ: "اللَّهُمَّ أَنْجِزْ لِي مَا وَعَدْتَنِي، اللَّهُمَّ آتِ مَا وَعَدْتَنِي، اللَّهُمَّ إِنْ تُهْلِكْ هَذِهِ الْعِصَابَةَ مِنْ أَهْلِ الإِسْلامِ لا تُعْبَدْ فِي الأَرْضِ". فَمَا زَالَ يَهْتِفُ بِرَبِّهِ مَادًّا يَدَيْهِ مُسْتَقْبِلَ الْقِبْلَةِ، حَتَّى سَقَطَ رِدَاؤُهُ عَنْ مَنْكِبَيْهِ، فَأَتَاهُ أَبُو بَكْرٍ فَأَخَذَ رِدَاءَهُ، فَأَلْقَاهُ عَلَى مَنْكِبَيْهِ، ثُمَّ الْتَزَمَهُ مِنْ وَرَائِهِ، وَقَالَ: يَا نَبِيَّ اللهِ؛ كَفَاكَ مُنَاشَدَتُكَ رَبَّكَ؛ فَإِنَّهُ سَيُنْجِزُ لَكَ مَا وَعَدَكَ(١).

وسط هذا الموقف العصيب يُعَلِّم رسول الله ﷺ أصحابه ضرورة اللجوء إلى الله في كل وقت؛ مستمدِّين منه النصر والتأييد؛ فالنصر ليس بقوَّة السلاح والعتاد وحدهما، ولكنه بفضل ومنَّة من الله تبارك وتعالى:

﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰٓ ۚ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ ۗ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾﴾(٢).

وفي غزوة أحد تعلَّم المسلمون درسًا آخر، وسط حدث مختلف تعرَّضوا له، بعدما نَسُوا الغرض الحقيقي من جهادهم للمشركين، فضلاً عن مخالفة الرماة لأمر رسول الله ﷺ من أجل دنيا يُصيبونها، فهُزم المسلمون، وقال تعالى مُعَلِّمًا ومربِّيًا لهم:

﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾(٣).

قال القرطبي: "يعني: الغنيمة. وقال ابن مسعود: ما شعرنا أن أحدًا من أصحاب النبي ﷺ يُريد الدنيا وعرضها

(١) مسلم: كتاب الجهاد والسير، باب الإمداد بالملائكة في غزوة بدر وإباحة الغنائم، (١٧٦٣).

(٢) (آل عمران: ١٢٣-١٢٦).

(٣) (آل عمران: ١٥٢).

حتى كان يوم أحد، وهم الذين ثبتوا في مركزهم، ولم يخالفوا أمر نبيِّهم ﷺ مع أميرهم عبد الله بن جبير"[١].

"فكانت هذه الحصيلة الضخمة التي استقرَّت في الجماعة المسلمة من وراء الأحداث، ومن وراء التوجيهات القرآنية بعد الأحداث، أكبر وأخطر -بما لا يُقاس- من حصيلة النصر والغنيمة.. لو عاد المسلمون من الغزوة بالنصر والغنيمة.. وقد كانت الجماعة المسلمة إذ ذاك أحوج ما تكون لهذه الحصيلة الضخمة.. كانت أحوج إليها ألف مرَّة من حصيلة النصر والغنيمة، وكان الرصيد الباقي منها للأُمَّة المسلمة في كل جيل أهمَّ وأبقى كذلك من حصيلة النصر والغنيمة".

وعلى هذا المنهج سار رسول الله ﷺ في تربية أصحابه، فكان ﷺ لا يترك حادثة تمرُّ دون أن يستخلص منها الدروس والعبر، فيُؤَكِّد على السلوك الصحيح، ويأمر بتعديل السلوكيات الخاطئة، والأمثلة على ذلك في السيرة كثيرة.

ومن الأحداث التي وظّفها النبي ﷺ -كذلك- ما رواه لنا جابر بن عبد الله: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ مَرَّ بِالسُّوقِ دَاخِلاً مِنْ بَعْضِ الْعَالِيَةِ، وَالنَّاسُ كَنَفَتَهُ[٢]، فَمَرَّ بِجَدْيٍ أَسَكَّ[٣] مَيِّتٍ، فَتَنَاوَلَهُ فَأَخَذَ بِأُذُنِهِ، ثُمَّ قَالَ: "أَيُّكُمْ يُحِبُّ أَنَّ هَذَا لَهُ بِدِرْهَمٍ؟". فَقَالُوا: مَا نُحِبُّ أَنَّهُ لَنَا بِشَيْءٍ، وَمَا نَصْنَعُ بِهِ؟ قال: "أَتُحِبُّونَ أَنَّهُ لَكُمْ؟". قَالُوا: وَاللهِ! لَوْ كَانَ حَيًّا كَانَ عَيْبًا فِيهِ؛ لأَنَّهُ أَسَكُّ، فَكَيْفَ وَهُوَ مَيِّتٌ؟ فَقَالَ: "فَوَاللهِ! لَلدُّنْيَا أَهْوَنُ عَلَى اللهِ مِنْ هَذَا عَلَيْكُمْ"[٤].

إن المكان الذي وعظهم فيه ﷺ من خلال مشهد الجدي هو مَظَنَّة الغفلة، والتطلُّع إلى نماء الأموال وزيادة الثروة، فكانت الموعظة بمثابة هزَّة قوية تُناسب غفلة أهل السوق، دعاهم فيها إلى التأمُّل والتفكُّر، وأشعرهم بتفاهة الدنيا، التي هانت على الله تعالى كما هان عليهم هذا الجدي الميت المنتن، ولا شكَّ أن هذه الموعظة

---

(١) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، ٤/ ٢٣٧.

(٢) كنفته: جانبه. العظيم آبادي: عون المعبود شرح سنن أبي داود، دار الكتب العلمية بيروت، لبنان، الطبعة الثانية ١٤١٥هـ= ١٩٩٥م، ١/ ٢٤٨.

(٣) الأسك: ذاهب الأذن سواء من أصل الخلقة أو مقطوعها. ابن منظور: لسان العرب، مادة سكك ١٠/ ٤٣٩.

(٤) مسلم: كتاب الزهد والرقائق، (٢٩٥٧).

والعبرة ستتكرَّر لدى كل مسلم، كلما مرَّ بجيفة منتنة، يدعوه مشهدها إلى الموازنة الصحيحة المطلوبة(١).

وقد تنوَّعت المشاهد والأحداث التي استخدمها النبي ﷺ في تربية أصحابه؛ فقد رُوِيَ عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قَدِمَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ سَبْيٌ، فَإِذَا امْرَأَةٌ مِنَ السَّبْيِ قَدْ تَحْلُبُ ثَدْيَهَا تَسْقِي، إِذَا وَجَدَتْ صَبِيًّا فِي السَّبْيِ أَخَذَتْهُ فَأَلْصَقَتْهُ بِبَطْنِهَا وَأَرْضَعَتْهُ، فَقَالَ لَنَا النَّبِيُّ ﷺ: "أَتُرَوْنَ هَذِهِ طَارِحَةً وَلَدَهَا فِي النَّارِ؟". قُلْنَا: لا. وَهِيَ تَقْدِرُ عَلَى أَنْ لا تَطْرَحَهُ، فَقَالَ: "للهُ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنْ هَذِهِ بِوَلَدِهَا"(٢). لقد استخدم النبي ﷺ هذا المشهد الذي فاضت فيه معاني الرحمة واللهفة على الصغير من قِبَل الأم، التي لم تستطع أن تملك نفسها عن ضمِّ صغيرها وإلصاقه ببطنها، بعد غيابه عنها، فوضَّح ﷺ لصحابته أن رحمة الله بعباده لهي أكثر من رحمة هذه الأم بابنها الصغير.

وختامًا، فإن التربية بالحدث من أسرع الطرق، وأعظمها تأثيرًا في النفوس والعقول، وطريقة استخدمها النبي ﷺ في تربية صحابته، وأحدثت أبلغ الأثر فيهم، فهيَّا أيُّها المربُّون اقتدوا برسول الله ﷺ، واستنُّوا بسُنَّته؛ يبارك الله لكم في صناعة رجالكم.

---

(١) زياد محمود العاني: أساليب الدعوة والتربية في السنة النبوية، ص٣٨٩.

(٢) البخاري: كتاب الأدب، باب رحمة الولد وتقبيله ومعانقته، (٥٦٥٣).

المبحث العاشر: التربية بالعقوبة

العقاب وسيلة من وسائل تقويم السلوك وتربية النفوس، ولكنها تأتي في نهاية المطاف؛ حينما لا تُفلح الوسائل التربوية الأخرى في أداء هذه المهمة؛ وهذا لأن طبائع البشر ليست واحدة، فمِنَ الناس مَنْ تكفيه موعظة ليفيق من سُباته، ومنهم من يكفيه ترغيب أو ترهيب.. أو غير ذلك، ولكن هناك مَنْ لا يستجيب لتلك المؤثرات أو غيرها، وعندئذ لا بُدَّ له من علاج حاسم؛ كالعقوبة المعنوية أو المادية؛ ليرتدع ويعود إلى جادة الصواب، مع الأخذ في الاعتبار أن تكون هذه العقوبة داخل إطار الشرع الإسلامي، وأن يكون هدفها الأول والأخير هو التوجيه والإصلاح لا التشفِّي والانتقام، هذا هو المنهج التربوي الإسلامي، الذي يُريد صيانة المجتمع وحفظه من الدمار والهلاك.

وقد استخدم النبي ﷺ أسلوب العقوبة في تقويم الأخلاق والسلوك؛ فالعقوبة برغم أنها تُوقِعُ الألم في النفس والجسد، إلاَّ أنها تُعَدُّ كذلك مظهرًا من مظاهر رحمة الله تعالى بعباده؛ وذلك لأنها تزجر الإنسان عن ارتكاب الجريمة، فيبتعد عن الإثم، وإذا وقع في الجريمة فإن العقوبة في حقِّه بمنزلة الكي بالنسبة للمريض المحتاج إليه، وبمنزلة قطع العضو الفاسد والمتآكل من الجسد، فإن هذا القطع وذلك الكي مصلحة للإنسان وإبقاء لحياته وإيقاف للمرض من السريان في بقية الجسد وإهلاكه كله(١)؛ ولكن بالرغم من ذلك لم يكن قصد الشرع من توقيع العقوبات والحدود مجرَّد الانتقام والتنكيل، والدليل على ذلك إعراض النبي ﷺ عن ماعز والغامدية حينما جاءاه ليُطَهِّرهما من معصية الزنا.

ومن الأمور التي راعاها رسول الله ﷺ عند استخدام أسلوب العقوبة مع شخص ما، أن تتناسب هذه العقوبة مع طبيعة الشخص المعاقَب، ومع طبيعة الجريمة أو الفعل الذي اقترفه، ولننظر إلى تعامله ﷺ مع عمر بن أبي مسلمة الذي قال: كُنْتُ غُلامًا فِي حجر رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَكَانَتْ يَدِي تَطِيشُ فِي الصَّحْفَةِ، فَقَالَ لِي رَسُولُ اللهِ ﷺ: "يَا غُلامُ؛ سَمِّ اللهَ، وَكُلْ بِيَمِينِكَ، وَكُلْ مِمَّا يَلِيكَ". فَمَا زَالَتْ تِلْكَ طِعْمَتِي بَعْدُ(٢). هذا هو التعامل المثالي مع هذا الموقف التربوي التعليمي لهذا الغلام الصغير، الذي يحتاج إلى إرشاد وتوجيه وليس

(١) محمد السيد يوسف: منهج القرآن في إصلاح المجتمع، ص٤٥٥، بتصرف.

(٢) البخاري: كتاب الأطعمة، باب التسمية على الطعام... (٥٠٦١).

إلى تعنيف وتوبيخ؛ لذلك أتى هذا الأسلوب أثره، فقال عمر بن أبي مسلمة معقبًا على هذا الحدث: فَمَا زَالَتْ تِلْكَ طِعْمَتِي بَعْدُ.

وأسلوب التربية بالعقوبة أسلوب متدرَّج يبدأ أولاً بالتأنيب والتوبيخ، كما في قصة أبي ذر: قَالَ لِي النَّبِيُّ ﷺ: "يَا أَبَا ذَرٍّ؛ أَعَيَّرْتَهُ بِأُمِّهِ، إِنَّكَ امْرُؤٌ فِيكَ جَاهِلِيَّةٌ؛ إِخْوَانُكُمْ خَوَلُكُمْ جَعَلَهُمُ اللهُ تَحْتَ أَيْدِيكُمْ، ...فَإِنْ كَلَّفْتُمُوهُمْ فَأَعِينُوهُمْ"(١). فكان التأنيب والتوبيخ رادعًا لأبي ذرٍّ رضي الله عنه ومقوِّمًا له، فغيَّر من أسلوب معاملته لإخوانه، بل ولغلامه.

كذلك كانت طريقة الإعراض بالوجه وعدم الرضا من الطرق التي أتت بثمارها في مجال التربية بالعقوبة، ومن أمثلة ذلك ما رواه أبو سعيد الخدري رضي الله عنه: أَنَّ رَجُلاً قَدِمَ مِنْ نَجْرَانَ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ وَعَلَيْهِ خَاتَمٌ مِنْ ذَهَبٍ، فَأَعْرَضَ عَنْهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَقَالَ: "إِنَّكَ جِئْتَنِي وَفِي يَدِكَ جَمْرَةٌ مِنْ نَارٍ"(٢). فما كان منه إلاَّ أن طرحه حتى يُرضي بذلك الله ورسوله.

كذلك استخدم النبي ﷺ الحرمان كأحد طرق التربية بالعقوبة؛ وذلك من أجل تقويم النفس وتعديل السلوك، فعن عروة عن أبيه رضي الله عنه أَنَّه حَدَّثَهُ أَنَّ رَجُلاً مِنَ الأَنْصَارِ خَاصَمَ الزُّبَيْرَ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ فِي شِرَاجِ الْحَرَّةِ، الَّتِي يَسْقُونَ بِهَا النَّخْلَ، فَقَالَ الأَنْصَارِيُّ: سَرِّحِ الْمَاءَ يَمُرُّ. فَأَبَى عَلَيْهِ، فَاخْتَصَمَا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِلزُّبَيْرِ: "اسْقِ يَا زُبَيْرُ، ثُمَّ أَرْسِلِ الْمَاءَ إِلَى جَارِكَ". فَغَضِبَ الأَنْصَارِيُّ، فَقَالَ: أَنْ كَانَ ابْنَ عَمَّتِكَ. فَتَلَوَّنَ وَجْهُ رَسُولِ اللهِ ﷺ ثُمَّ قَالَ: "اسْقِ يَا زُبَيْرُ، ثُمَّ احْبِسِ الْمَاءَ، حَتَّى يَرْجِعَ إِلَى الْجَدْرِ"(٣)، نجد هنا أن الأنصاري قد عرَّض نفسه للحرمان؛ نتيجة لعدم مراعاته لأدب التعامل مع رسول الله ﷺ.

ومن طرق العقوبة -أيضًا- التي تؤلم النفس، طريقة التربية بالمقاطعة والهجر؛ لِمَا لها من أثر كبير في نفسية المعاقَب بها، لا سيما وإن صدر ذلك من المقرَّبين إلى نفسه، وقد استخدمها النبي ﷺ مع أصحابه لتعديل بعض السلوك، ولكن بحسب ما يقتضيه الموقف؛ فمن أمثلة ذلك ما أمر به رسول الله ﷺ من مقاطعة

---

(١) البخاري: كتاب الإيمان، باب المعاصي من أمر الجاهلية... (٣٠).

(٢) النسائي في سننه: كتاب الزينة، (٥١٨٨)، وقال الألباني: صحيح.

(٣) البخاري: كتاب الصلح، باب إذا أشار الإمام، (٢٥٦١).

الثلاثة الذين خُلِّفُوا في غزوة تبوك؛ وهم: كعب بن مالك، ومرارة بن الربيع، وهلال بن أمية، هؤلاء جميعًا قاطعهم الرسول ﷺ والصحابة الكرام، ولم يُكَلِّمهم أحد من المسلمين لمدَّة تصل إلى خمسين يومًا، ذاقوا فيها مرارة الأسى والحزن الشديد[١]. وظلَّت المحنة تضيق بهؤلاء الثلاثة ولم يخرجوا منها، إلاَّ بفرج من الله عَجَلّ.

ثم تأتي المرحلة الأخيرة من أسلوب التربية بالعقوبة، ألا وهو مرحلة العقاب البدني من ضربٍ وغيره، والتي لا يجب اللجوء إليها إلاَّ بعد استنفاد كل الطرق التي سقناها منذ بداية المبحث، كما يجب على المربِّي ألاَّ يُسرف فيه، وألاَّ يترك أثرًا في جسمه، وخاصة مع الصبيان الصغار، وما كان حديث رسول الله ﷺ بضرب الأولاد لحثهم على الصلاة إلاَّ بعد تعويدهم عليها منذ الصغر.

كما وضع الإسلام لهذه العقوبة البدنية ضوابط؛ منها: أن يكون هذا الضرب للتعليم والتقويم لا للتشفِّي والتنكيل، كما لا بُدَّ أن يكون آخر مراحل التقويم، وعلى المربِّي حين يُعاقب بالضرب أن يتجنَّب الأماكن المؤذية، فلا يضرب وجهًا أو رأسًا، أو أي مكان به خطورة على حياة المتربِّي ...، فهذه وغيرها بعض من ضوابط أسلوب العقاب في التربية، وكلها مُحاطة بسياج من الأمن؛ مراعاة لمصلحة الصبي إلى أقصى الحدود، واقتصاد شديد في هذه العقوبة البدنية؛ فالأب أو الزوج أو المعلم لا يلجأ إلى الضرب إلاَّ بعد أن يستنفد جميع وسائل الوعظ والتنبيه، والتهديد والتخويف، قبل اللجوء إلى مرحلة التقويم عن طريق الضرب[٢].

أما العقاب البدني للكبار فله آداب وحدود وأحكام حدَّدها الله ﷻ، من باب رحمته للفرد والمجتمع على السواء؛ وذلك لأن في تطبيق هذه الحدود طهارة للمجتمع ونظافة له من الأدران والخبائث، وقمع للمجرمين، وسَدٌّ لمنافذ الشرِّ وذرائعه؛ ولذلك لم يتهاون رسول الله ﷺ في إقامة حدٍّ من حدود الله عَجَلّ، فعن عَلِيٍّ رضي الله عنه قَالَ: فَجَرَتْ جَارِيَةٌ لآلِ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَ: "يَا عَلِيُّ؛ انْطَلِقْ فَأَقِمْ عَلَيْهَا الْحَدَّ". فَانْطَلَقْتُ فَإِذَا بِهَا دَمٌ يَسِيلُ لَمْ يَنْقَطِعْ، فَأَتَيْتُهُ فَقَالَ: "يَا عَلِيُّ؛ أَفَرَغْتَ". قُلْتُ: أَتَيْتُهَا وَدَمُهَا يَسِيلُ. فَقَالَ: "دَعْهَا حَتَّى يَنْقَطِعَ دَمُهَا، ثُمَّ أَقِمْ عَلَيْهَا

(١) انظر القصة كاملة عند البخاري: كتاب المغازي، باب حديث كعب بن مالك... (٤١٥٦).

(٢) انظر: أحمد فؤاد الأهواني: التربية في الإسلام، دار المعارف، القاهرة، د.ت، ص١٥٥ .بتصرف.

الْحَدَّ"(١). وهذا يتضح -أيضًا- في موقف امرأة بني مخزوم التي سرقت ولم يشفع في أمرها رسول الله ﷺ من أجل إقامة حدود الله ﷻ، ولكن بالرغم من ذلك فإن رسول الله ﷺ لم يُقِمْ حَدًّا على شخص إلاَّ بعد تَلَمُّسه كل الأسباب التي ربما تُنقذ الجاني من عثرته ومحنته، وهذا -أيضًا- ما اتضح في قصة كلٍّ من ماعز والغامدية.

هكذا يَتَّضح لنا عظمة المنهج النبوي في استخدام أسلوب العقوبة لتقويم السلوك وتهذيب الأخلاق، وهذه هي الأساليب التي صنع بها رسول الله ﷺ أصحابه، تنوَّعت وتعدَّدت، فآتت أكلها بإذن ربها، وبلغت غايتها وأهدافها، فترك رجالاً عَلَّمُوا الدنيا كل معاني الخير والإنسانية، فاستحقُّوا أن يكونوا قادة وهداة، فيا مَنْ ترغب في صناعة رجال أمثالهم عليك بطريق رسول الله وهديه؛ فهو الطريق الوحيد الذي أدى إلى أفضل وأحسن النتائج.

وأخيرًا؛ فإني أعتذر عمَّا سقط منّي سهوًا دون تعمُّدٍ من مواقف عظيمة لرسولنا الكريم ﷺ، أو من أحكام فقهية مهمة لم تخطر على بالي أن أسجِّلها؛ فإن النقص من طبيعة البشر، والكمال على إطلاقه لا يكون إلاَّ لله ﷻ.

وعزائي في القول الموفَّق للعماد الأصبهاني(٢): "إني رأيت أنه لا يكتب إنسان كتابًا في يومه إلاَّ قال في غده: لو غُيِّرَ هذا لكان أحسن، ولو زِيد كذا لكان يُستحسن، ولو قُدِّم هذا لكان أفضل، ولو تُرك هذا لكان أجمل.. وهذا من أعظم العبر، وهو دليل على استيلاء النقص على جملة البشر"(٣).

---

(١) أبو داود: في سننه، كتاب الحدود، باب في إقامة الحد على المريض، (٤٤٧٣). قال الألباني صحيح.

(٢) العماد الأصبهاني: هو أبو عبد الله محمد بن صفي الدين محمد، ولد بأصبهان، وتعلم ببغداد، وعمل في "ديوان الإنشاء" زمن السلطان نور الدين، ثم لحق بصلاح الدين، له تصانيف عديدة منها: "خريدة القصر"، و"الفتح القسي القدسي"، وقد استوطن دمشق، وتوفي بها سنة ٥٩٧ هـ. انظر: الذهبي: سير أعلام النبلاء ١٥/ ٢١٤.

(٣) أبجد العلوم ١/ ٧٠.

الخاتمــة

الحمد لله حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه، والصلاة والسلام على من جمعت كلُ خصالِ الخير فيه، وعلى آله وتابعيه.

فبعد هذه المعايشة والعرض للأساليب النبوية في غرس القيم لدى الشباب، والتي لو تركنا العنان للأقلام لسطرت المجلدات تلو المجلدات؛ لأن إصلاح الإنسان وتربيته معقد آمال الأنبياء والمربين؛ لأن الإرث النبوي مليء بالأساليب والنماذج التربوية الداعية إلى كل القيم الفضائل، والتي تتكامل مع بعضها البعض لصناعة إنسان صالح يُقَدِّم الخير لنفسه ولأمته، والسنة النبوية هي التطبيقي العملي، والمنهج الفريد لبناء الأجيال وصناعة الرجال، وقد أرشدنا الله تعالى إلى أهم النتائج والتوصيات التي يجب على المربين والمصلحين مراعاتها كالتالي:

أولاً: أن يدركوا أهمية العمل التربوي الإسلامي وفاعليته في صناعة الرجال ورقي الأمم والحفاظ على هويتها، وهذا البحث قدم الأدلة العلمية على ذلك.

ثانيًا: أن يؤمنوا أن العقيدة الإسلامية الصحيحة هي المفتاح الحقيقي لصلاح وصناعة الإنسان، المتصل بربه، الباني لأمته، المالك للدنيا، والراجي في ثواب الله وعفوه.

ثالثًا: أن يراعوا تكاملية المنهج التربوي الإسلامي في صناعة الرجال، عند تطبيقه في أرض الواقع؛ حتى لا يطغى جانب على جانب آخر، فيصنع ذلك نصف إنسانٍ أو إنسانًا مشوهًا.

رابعًا: أن يبتكروا في أساليب ووسائل التربية ولا مانع من الانتفاع والانتقاء من الحضارات السابقة بشرط ألا يتعارض ذلك مع أصول الإسلام وقيمه.

خامسًا: أن يتكاملوا ويتعاونوا في صناعة بيئة تربوية مناسبة يُربَّى فيها الرجال، ويُصنع فيها الأبطال، ولن يتحقق ذلك إلا إذا شعر الجميع أن تربية إنسان صالح ضرورة بشرية وفريضة شرعية.

سادسًا: أن يعلموا أن نجاحهم في تربية وصناعة الإنسان مرهون بمدى تطبيقهم لمنهج النبيﷺ.

سابعًا: أن يتعاونوا في إنشاء قنوات فضائية ومواقع إنترنت تعرض المنهج النبوي في صناعة الرجال.

ثامنًا: أن يقيموا مؤسسات تربوية نموذجية، تستمد مناهجها التربوية من القرآن والسنة والانتقاء

الحضاري.

تاسعًا: أن يعملوا على تحرير العالم من تراثه التربوي المنحدر الذي أخرج أجيالاً نَسَت ربها، وَنَست إنسانتيها.

عاشرًا: أن يهتموا بالشباب؛ فهم أملنا في جيل جديد يحمل هم الإسلام وينشر محاسنه بين العالمين، وذلك عبر ابتكار مناهج موزونة، وأساليب تربوية مناسبة، ومعلمون قدوة، وبيئة تربوية مناسبة.

هذه أهم النتائج والتوصيات التي توصلت إليها خلال بحثي، سائلاً الله تعالى أن تكون خالصة لوجهه الكريم، وأن ينفع بها الإسلام والمسلمين.

ولا شك أن الكثير والكثير ممَّا يجب أن يُضَمَّ إلى هذا البحث لم أتمكن في ضمِّه، إمَّا لضيق الوقت، أو خوفًا من التَّكرار، أو سهوًا عن حادثة، أو جهلاً بأخرى.. وعذري أني بشر، ومن طبيعة البشر النقصان.. وما أجمل ما قاله الشافعي -وأُحِبُّ أن أختم به بحثي- وذلك عندما راجع كتابه الرسالة[1] ثمانين مرَّة، ثم قال لتلميذه المزني[2] في النهاية: "هيه.. أبى الله أن يكون كتابٌ صحيحٌ غيرَ كتابه"[3].

والحمد لله رب العالمين.

ناصر أبو عامر ٢٠/ ٨/ ٢٠٢١م – ينبع البحر – المدينة المنورة– المملكة العربية السعودية

(١) هو أول مؤلف في أصول الفقه، و في أصول الحديث، ورغم كونه كتاب فقه إلاَّ أنه كتاب لغة وأدب وثقافة أيضًا؛ وذلك لشهرة الشافعي بذلك، وكتب أصول الفقه والحديث عالة على هذا الكتاب.

(٢) أبو إبراهيم إسماعيل المزني:كان فقيهًا، عالمًا، عابدًا، عارفًا بوجوه الجدل، حسن البيان، قال عنه الشافعي، وهو في سن الحداثة: "لو ناظر المزني الشيطان لقطعه"، كما قال فيه الشافعي:"ناصر مذهبي".

(٣) حاشية ابن عابدين: ٢/ ٢٧.

فهرس بأهم المصادر

- القرآن الكريم.

- الجامع المسند الصحيح، للبخاري، ت: زهير الناصر، دار طوق النجاة الأولى، ١٤٢٢هـ.

-سنن ابن ماجه: لمحمد بن ماجه القزويني، دار الفكر بيروت، ت: محمد فؤاد عبد الباقي.

-سنن أبى داود: لأبي داود السجستاني، دار الفكر بيروت، ت: محمد محيي الدين عبد الحميد.

-سنن الترمذي: لأبي عيسى الترمذي ـ دار إحياء التراث العربي بيروت، ت: أحمد شاكر.

-السنن الكبرى: للنسائي، ت: حسن شلبي، مؤسسة الرسالة – بيروت، الأولى، ١٤٢١ هـ.

-سير أعلام النبلاء: للذهبي، الرسالة، بيروت، التاسعة، سنة ١٤١٣هـ ت: شعيب الأرناؤوط.

-صحيح مسلم: لمسلم بن الحجاج القشيري، دار إحياء التراث العربي بيروت، ت: فؤاد عبد الباقي.

-عون المعبود للعظيم آبادي، دار الكتب العلمية بيروت، الطبعة الثانية ١٤١٥هـ ١٩٩٥م.

-فتح الباري شرح صحيح البخاري: لابن حجر، دار المعرفة بيروت، ت: محب الدين الطبري.

- لسان العرب لابن منظور، ت ٧١١هـ دار صادر-بيروت، الأولى.

-الجامع لأحكام القرآن للقرطبي: ت هشام البخاري، عالم الكتب، المملكة العربية السعودية، ١٤٢٣هـ= ٢٠٠٣م.

-التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج لوهبة الزحيلي، دار الفكر المعاصر- دمشق، الطبعة الثانية، ١٤١٨هـ.

- تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار) ملحمد رشيد رضا، الهيئة المصرية العامة للكتاب- القاهرة، ١٩٩٠م.

- الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر، ت: صدقي العطار، دار الفكر، دمشق، الأولي، ١٤٢١هـ=٢٠٠١م.

- سير أعلام النبلاء للذهبي، تحقيق حسين الأسد، مؤسسة الرسالة- بيروت، الطبعة التاسعة، ١٤١٣هـ=١٩٩٣م.

- التربية في الإسلام لأحمد فؤاد الأهواني، دار المعارف، القاهرة، د.ت.

- أساليب الدعوة والتربية في السنة النبوية لزياد محمود العاني، دار السلام- دمشق، الأولى، ١٤٢٨هـ= ٢٠٠٧م.

- السنة النبوية رؤية تربوية لسعيد إسماعيل علي، دار الفكر العربي- القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٢٣هـ= ٢٠٠٢.

- أسس التربية الإسلامية في السنة النبوية لعبد الحميد الصيد الزنتاني، الدار العربية للكتاب- ليبيا، الثانية، ١٩٩٣م.

- أصول التربية الإسلامية وأساليبها لعبد الرحمن النحلاوي، دار الفكر- دمشق، ط ٢٦، ١٤٢٩هـ= ٢٠٠٨م.

- التربية بالآيات لعبد الرحمن النحلاوي، دار الفكر- دمشق، الطبعة الثالثة، ١٤٢٤هـ=٢٠٠٣م.

- التربية بالقصة لعبد الرحمن النحلاوي، دار الفكر- دمشق، الطبعة الثانية، ٢٠٠٥م.

- التربية بالترغيب والترهيب لعبد الرحمن النحلاوي، دار الفكر- دمشق، الطبعة الثانية، ١٤٢٩هـ= ٢٠٠٨م.

- التربية بضرب الأمثال لعبد الرحمن النحلاوي، دار الفكر- دمشق، الطبعة الثانية، ١٤٢٦هـ= ٢٠٠٥م.

- منهج القرآن في إصلاح المجتمع لمحمد السيد يوسف، دار السلام- القاهرة، الطبعة الثالثة، ١٤٢٨هـ= ٢٠٠٧م.

- السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد لعبد الكريم زيدان، الرسالة- بيروت، الثالثة، ١٤٢٣هـ- ٢٠٠٢م.

- السنن الإلهية في الأمم والأفراد لمجدي محمد محمد عاشور، دار السلام- القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٢٧هـ= ٢٠٠

-المستدرك على الصحيحين: للحاكم، العلمية بيروت، الأولى ١٩٩٠م، تحقيق: مصطفى عطا.

-مسند أحمد: أحمد بن حنبل، ت: شعيب الأرنؤوط وآخرون، مؤسسة الرسالة، الأولى،١٤٢١هـ.

فهرس الموضوعات

المحتويات